تحذير

من ينتمي إلى الإسلام، عن الاحتماء بأعداء الملك العلام، والوقوع فيمن أقامه الله تعالى للمسلمين إمام

تأليف

الشيخ علوي بن أحمد بن عبدالرحمن السقاف
المتوفى عام (١٣٣٥هـ)
رحمه الله

اعتنى بها

سليمان بن صالح الخراشي

تنبيه

١) جميع الأحاديث
تلونه بالأسود
من غير تظليل

٢) تخريج كل آية بعدها
وليس في الهامش

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد: فإن الولاء والبراء أوثق عرى الإيمان؛ كما قال رسول الله ﷺ: **«أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، الحب في الله والبغض في الله»**[(١)].

قال الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب رحمهم الله: «فهل يتم الدين أو يقام علم الجهاد أو علم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بالحب في الله، والبغض في الله، والمعاداة في الله، والموالاة في الله؟ ولو كان الناس متفقين على طريقة واحدة، ومحبة من غير عداوة ولا بغضاء، لم يكن فرقانا بين الحق والباطل، ولا بين المؤمنين والكفار، ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»[(٢)].

---

(١) السلسلة الصحيحة؛ للألباني، (برقم ٩٩٨).
(٢) رسالة «أوثق عرى الإيمان»، (ص ٣٨).

ولهذا؛ فقد أولى علماء الإسلام مسألة «الولاء والبراء» عناية هامة، فحثوا المسلمين - حكاما ومحكومين - على التمسك بها، وحذروا من التهاون فيها؛ لأن ذلك مدعاة إلى تذويب الفروق بين المسلمين والكافرين، ووسيلة لتسلل مظاهر الكفر إلى نفوس ومجتمعات المسلمين، إذا ما كسرت الحواجز أمامها.

يقول الدكتور طه جابر العلواني في مقدمته لكتاب «النهي عن الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار»(١) - موضحا هذا -:

أما «الحاجز النفسي» فإن الإسلام قد حققه بعدة أمور منها:

- الإحساس بالاستعلاء والشعور بالعزة ب(ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وفي الحديث: «..الإسلام يعلو ولا يعلى»(٢).

- الإحساس بكراهية الكفر وأهله، وازدراء ما هم عليه والاستهانة به: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ ﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾. وإذا خيف من تأثر البعض بمظاهر علم لديهم أو تقدم حسي عندهم فذلك لأنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ

---

(١) (ص ٩ - ٥٨) - باختصار -.

(٢) أخرجه الدارقطني (٣ / ٢٥٢)، وعلقه البخاري. انظر: «التلخيص الحبير»؛ للحافظ ابن حجر، (٦ / ٢٩٧٠) - ط: أضواء السلف -.

غَٰفِلُونَ﴾ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

– المنع من محبة الكافرين: ومن تلك الأمور التي تحقق «الحاجز النفسي» بين المسلمين وأعدائهم: منع المسلمين من موادة الكافرين أو توليهم. قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

– النهي عن موالاة الكافرين: ومنها النهي عن موالاتهم؛ قال تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

– إلى أن يقول –:

«وإن أول الوهن الذي أصيب به المسلمون هو وقوعهم في أزمة التردد في هذا الأمر، هذا التردد الذي جرهم بدوره إلى الخلط بين التسامح الذي أمروا به مع أهل ذمتهم الذين هم تحت سلطانهم، والذين هم في فقر إلى رعايتهم، والوفاء بالعهود لمن عاهدوا منهم، وبين التساهل مع أعداء الله وأعدائهم من

المحاربين لله ولرسوله فكثيرا ما وضعوا التساهل والتهاون موضع الحزم والصلابة، وهل أضاعهم اليوم غير هذا؟

إن المسلمين اليوم أحوج ما يكونون إلى العمل على إعادة بناء هذا «الحاجز النفسي» بينهم وبين أعدائهم ليبقوا على ما قد يكون بقي لهم من عرى الإسلام، ويرموا ما قد رث منها وبلي؛ فإن الكفار ما استطاعوا النيل من هذه الأمة إلا بعد أن تمكنوا من هدم «الحاجز النفسي» بينهم وبين المسلمين بوسائل متعددة، وخطط مختلفة، وجهود متصلة بدأت منذ أن انتصر الإسلام وقامت دولته، ويئس الكفار من تدميرها، أو النيل منها».

- إلى أن يقول بعد أن بين الضعف الذي حل بالدولة العثمانية في نهاية عهدها بسبب إضعاف أصل الولاء والبراء واستبداله بشعارات مضللة؛ كالتسامح والحوار مع الآخر.. الخ! -:

«لقد كان المقصود بشعار «التسامح» هدم حاجز الحذر من الاتصال بالأجنبي، والتحفظ منه، تمهيدا للانفتاح عليه، والتعاون معه، ولم تكن تهمة التعصب تنتفي عن مسلم، وما كان أحد -من المسلمين- ينال شرف الاتصاف «بالتسامح» إلا إذا تهاون في أمور دينه، وفترت علاقته بإخوانه المسلمين، وقويت مع أعداء الله، وارتضى الانضمام إلى تلك الجمعيات العميلة، والأحزاب الدخيلة، أو تعاون معها، أو سهل للقائمين عليها -من الدخلاء- مهماتهم، أو سكت عن جرائمهم، وأهدافهم الخبيثة، وإلا فهو رجعي متعصب، وسلفي متزمت، ولم يسلم من الاتصاف «بالتزمت» و«الرجعية والانغلاق» مسلم يعتبر التعاون مع الأجنبي ضد مصلحة الأمة

الإسلامية «خيانة عظمى» لله ولرسوله وللمؤمنين يستحق فاعلها الخزي والعار في الدنيا، والعذاب والنار في الآخرة، فنشأ نتيجة لذلك شعور بالرهبة والخوف لدى الكثيرين من التصدي لهذه المؤامرات والمحاولات التخريبية، وبذلك انفتحت الأبواب أمام إنشاء الجمعيات العميلة المخربة وتأسيسها».

- إلى أن يقول بعد أن تحدث عن نشوء الجمعيات القومية التي هدمت هذا الأصل -:

«إن سقوط «الحاجز النفسي» بين المسلمين وأعداء الإسلام هو الذي حول فلسطين من أرض إسلامية، وقبلة أولى للمسلمين إلى وطن قومي لليهود، وجعل من جبال لبنان الأشم «وطنا قوميا» للنصارى، وجعل عاصمتي الخلافتين الأموية والعباسية أهم قاعدتين للنفوذ النصراني في المنطقة، منهما ينتشر الفكر الإلحادي، والكفر البواح بكل أشكاله، ويجهود حكامهما يكسب الكفر ما يريد.

إن سقوط الحاجز النفسي بين المسلمين وأعدائهم هو الذي سهل على مجموعة من أولئك الذين تربوا في مواخير المخابرات الأمريكية والفرنسية والبريطانية تسلم زمام قيادة الشباب العربي المسلم لفترة جيلين متصلين، ولا يزال تلامذة هؤلاء في مراكز القيادة في أقطار عربية وإسلامية عديدة».

- ثم يلمح إلى «المملكة العربية السعودية» ويوجه لها نصيحة ثمينة -: يُلمح

«إن هناك أقاليم مسلمة عافاها الله تعالى في ماضيها من كثير من الأمراض التي ابتليت بها جاراتها - ونسأله تعالى أن يعافيها فيما يستقبل من الأيام -

ولكنها ابتليت أخيرا بمن يعملون ليل نهار على إسقاط «الحاجز النفسي الإسلامي» ذلك الحاجز الذي حماها في الماضي من أن تسقط في براثن الكافر المستعمر، وأمام تلك المحاولات الكثيرة التي خطط لها أعداؤها، شرع المخدوعون والمضللون من أبنائها في تنفيذها قد خطت خطوات واسعة في سبيل إسقاط «الحاجز النفسي الإسلامي» بينها وبين أعدائها: فهناك آلاف المبتعثين الذين يعودون بعقول وقلوب غير التي ذهبوا بها. وهناك آلاف الخبراء والمستشارين وزوجاتهم، وكذلك العمال وغيرهم من الذين لابد أن يتركوا بصمات واضحة في أخلاق أبناء المجتمع وسلوكهم، وسائر شئونهم. وهناك السياحة إلى بلاد الكفار وغيرها، وما تحدثه من تعاطف مع الكفار، وميل إليهم وإعجاب بما لديهم وتخلق بأخلاقهم، وهناك التجارة المشتركة وآثارها والإسراف باستيراد اليد العاملة، وما لذلك من نتائج سلبية، في مقدمتها دفع الحواجز النفسية بين المسلمين وأعدائهم، وتهيئة عقولهم وقلوبهم للانفعال والتأثر بما عليه الآخرون، ومن فتح قلبه وعقله لقوم فتحت أرضه لا محالة لهم، فلعل هؤلاء ينتهون قبل فوات الأوان ويعيدون النظر في هذه السياسات ويرممون بناء الحاجز النفسي الإسلامي في قلوب أبنائهم لحماية ما قد يكون بقي لهم من مقومات الشخصية الإسلامية».

قلت: ومما ابتليت به الأمة الإسلامية - للأسف - تساهل بعض المسلمين - حكاما ومحكومين - في أمر الموالاة والمعاداة الشرعية؛ مما أداهم إلى محبة أعداء الله، أو التعاون معهم ضد المسلمين، أو مظاهرتهم لهم في تقويض حكم الإسلام.. الخ المخالفات في هذا الباب العظيم. وكان هذا التساهل مدعاة إلى أن يتصدى له علماء المسلمين في مختلف

اسود

بلادهم؛ محذرين من خطره، ومآلاته على ديارهم.

ومن تلك المؤلفات التي تحدثت عن مسألة «الولاء والبراء»، وما يتعلق بها: هذه الرسالة المختصرة للشيخ علوي بن أحمد السقاف ﷺ شيخ السادة العلويين بمكة: «تحذير من ينتمي إلى الإسلام، عن الاحتماء بأعداء الملك العلام، والوقوع فيمن أقامه الله تعالى للمسلمين إمام»؛ حيث «حذر» فيها - باختصار - من تلك الأمور الشنيعة.

التي انتشرت بين المسلمين في عصره.

وقد أحببت بعثها للطباعة - رغم اختصارها -[١]، لتأكيد أن مبدأ «الولاء والبراء» مما اتفقت عليه كلمة علماء المسلمين في جميع البلدان الإسلامية، وصنفوا فيها المصنفات[٢]؛ لوضوح أمره في النصوص القرآنية والأحاديث

---

(١) وهو قد اختصرها من رسالة الشيخ عبدالله الأهدل ﷺ: «السيف البتار على من يوالي الكفار».

(٢) من مؤلفات أهل السنة في هذا الباب: «أوثق عرى الإيمان» و«الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك»؛ للشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب - رحمهم الله -. و«سبيل النجاة والفكاك»؛ للشيخ حمد بن عتيق ﷺ. و«إيضاح المحجة والسبيل وإقامة الحجة والدليل على من أجاز الإقامة بين أهل الشرك والتعطيل»؛ للشيخ إسحاق بن عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب - رحمهم الله -. و«تحفة الإخوان بما جاء في الموالاة والمعاداة والحب والبغض والهجران»، للشيخ حمود بن عبدالله التويجرى ﷺ. و«الولاء والبراء في الإسلام»؛ للشيخ صالح الفوزان. و«الولاء والبراء»؛ للشيخ عبدالله الجبرين. و«الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية»؛ للشيخ محماس بن عبدالله الجلعود. و«الولاء والبراء في الإسلام»؛ للدكتور محمد بن سعيد القحطاني. و«الولاء والعداء في علاقة المسلم بغير المسلم»؛ للدكتور عبدالله بن إبراهيم الطريقي. و«الولاء والبراء: دراسة في وجوب موالاة المؤمنين والبراءة من الكافرين»؛ للشيخ عبدالرحمن عبدالخالق. و«الولاء والبراء بين أهل السنة ومخالفيهم»؛ =

النبوية، لا كما يوهم بعض المغرضين، من أنه مبدأ خاص بعلماء الدعوة السلفية في هذا البلد أو ذاك!

وقد قدمت لها بـ«نقولات» مهمة تجلي ما اختصره الشيخ السقاف في عدد من المسائل، وهي:

١- مسائل في الولاء والبراء.

٢- مظاهرة الكفار. والفرق بين التولي والموالاة والاستعانة.

٣- مسألة مدح الكفار.

= للدكتور إبراهيم بن عثمان الفارس. و«حقيقة الولاء والبراء في الكتاب والسنة بين تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وبراءة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب من الطائفتين»؛ للشيخ عصام بن عبدالله السناني، تقديم: الشيخ صالح الفوزان. و«رسالة البيان من السنة والقرآن والولاء والبراء في الإسلام»؛ للأستاذ فارس السالمي الحربي. و«حقيقة الولاء والبراء في معتقد أهل السنة والجماعة»؛ للأستاذ سيد سعيد عبدالغني، تقديم: الشيخ عبدالله البسام ﷺ. و«الحب في الله والبغض في الله»؛ للدكتور عبدالعزيز بن محمد آل عبداللطيف. ورسالة «من تشبه بقوم فهو منهم»؛ للدكتور ناصر بن عبدالكريم العقل. ورسالة «جهود علماء نجد في تقرير الولاء والبراء في القرن الثالث عشر الهجري»؛ للدكتور عبدالله بن محمد السند. ورسالة «موقف الاتجاه العقلي الإسلامي المعاصر من قضايا الولاء والبراء: دراسة عقدية»؛ للأستاذة مضاوي بنت سليمان البسام، و«نواقض الإيمان القولية والعملية»؛ للدكتور عبدالعزيز آل عبداللطيف، (ص ٣٥٨ - ٣٧٠).

ومن مؤلفات غيرهم: «الدواهي المدهية للفرق المحمية»؛ للشيخ جعفر الكتاني. و«السيف البتار على من يوالي الكفار»؛ للشيخ عبدالله الأهدل، و«القول المختار في المنع عن تخيير الكفار»؛ للشيخ فضل بن علوي (مطبوع قديما - عام ١٢٧٣هـ بمصر - ضمن كتابه: عدة الأمراء والحكام لإهانة الكفرة وعبدة الأصنام. وتوجد منه نسخة في مكتبة جامعة الملك سعود)، قال في أوله: «فاستخرت الله تعالى أن أذكر نبذة مما ورد في الكتاب والسنة وأقوال أئمة الإسلام وأفعال خلفائهم، من النهي عن موالاة اليهود والنصارى واستخدامهم».

٤- التجنس بجنسية دولة كافرة.

٥- ضابط التشبه المحرم.

٦- مفاسد الخروج على ولاة المسلمين.

ثم أتبعت هذا بترجمة الشيخ السقاف، ثم نص رسالته، ثم صور أوراق المخطوط[١].

أسأل الله أن ينفع بهذا الجهد؛ مؤلفه، ومحققه، وقارئه. وأن يوفق ولاة أمر المسلمين إلى ما فيه عز الإسلام، وحماية جنابه؛ بتأصيل مبدأ الولاء والبراء في الأمة؛ كما أراده الله سبحانه، دون إفراط أو تفريط، وأن يجنبهم كل ما يوهنه أو يضعف أمره، والله الهادي. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه/ سليمان بن صالح الخراشي

alkarashi1@hotmail.com

(١) وهو من محفوظات مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، برقم (١١٥٠).

المسألة الأولى: «الولاء والبراء»[١]:

١- الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله:

لما كان أصل الموالاة: الحب. وأصل المعاداة: البغض وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة؛ كالنصرة والأنس والمعاونة، وكالجهاد، والهجرة، ونحو ذلك[٢]. فإن الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله. وأدلة ذلك كثيرة من الكتاب والسنة.

أما الكتاب فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].

ويقول تباركت أسماؤه عن أهداف أعداء الله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٨٩] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] ويقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) ملخصة من رسالة الدكتور محمد بن سعيد القحطاني: «الولاء والبراء في الإسلام».
(٢) «الرسائل المفيدة»؛ للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، (ص٢٩٦).

أما الأحاديث والآثار فكثيرة وأذكر منها:

١- ما رواه الإمام أحمد[(١)] عن جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ بايعه على أن «تنصح لكل مسلم، وتبرأ من الكافر».

٢- روى ابن أبي شيبة بسنده[(٢)] قال: قال رسول الله ﷺ: **«أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله»**.

٣- روى الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله»**[(٣)].

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في شرح قول ابن عباس هذا: «قوله: «ووالى في الله» هذا بيان للازم المحبة في الله، وهو الموالاة فيه إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب، بل لابد مع ذلك من الموالاة التي هي لازم الحب، وهي النصرة والإكرام، والاحترام والكون مع المحبوبين باطنا وظاهرا. وقوله: «وعادى في الله»؛ هذا بيان للازم البغض في الله، وهو المعاداة فيه، أي إظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله، والبراءة منهم، والبعد عنهم باطنا وظاهرا، إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب، بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن

(١) في «المسند» برقم (١٩١٧٦)، وصححه الأرنؤوط.
(٢) في مصنفه برقم (٣٤٣٣٨)، وفي «الإيمان»، (ص ٤٥). وحسنه الألباني.
(٣) «صحيح الجامع الصغير»، برقم (٢٥٣٦).

دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ [الممتحنة: ٤].

ومما سبق يتضح أن الولاء في الله هو: محبة الله ونصرة دينه، ومحبة أوليائه ونصرتهم. والبراء هو: بغض أعداء الله ومجاهدتهم. وعلى ذلك جاءت تسمية الشارع الحكيم للفريق الأول: بـ«أولياء الله»، والفريق الثاني: بـ«أولياء الشيطان» قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]

واعلم أن الله سبحانه لم يبعث نبيا بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾(١) [الأنعام: ١١٢].

وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة، وكتب وحجج؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

والواجب على المسلم أن يتعلم من دين الله ما يصير له سلاحا يقاتل به هؤلاء الشياطين، ومن ثم لا خوف ولا حزن؛ لأن: ﴿كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ

(١) «تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد»، (ص٤٢٢).

ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء المشركين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان، كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان(١).

٢- حقد الكفار على المسلمين:

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وفي سورة آل عمران: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ

---

(١) انظر: «كشف الشبهات»؛ للإمام محمد بن عبد الوهاب، (ص ٢٠)، و«مجموعة الرسائل والمسائل النجدية»، (٤/٤٦).

خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

فهذه الآيات، وغيرها مما في مثل معناها: تبين كيدهم وما يتربصون به للإسلام وأتباعه. ولذلك جاءت آيات كثيرة في تحذير المؤمنين ونهيهم عن الاستماع للكفار عامة، لأهل الكتاب خاصة، أو طاعتهم، أو اتخاذهم أولياء، أو الركون إليهم.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩-١٥٠].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١]

ورد في سبب نزول هاتين الآتين: أن شاس بن قيس اليهودي - وكان شيخا قد أغبر في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم - مر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس

والخزرج، في مجلس جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم، وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار! فأمر شابا من اليهود كان معه فقال: أعمد إليهم فأجلس معهم، ثم ذكرهم بعاث -أحد أيامهم في الجاهلية- وما كان فيه، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل. وتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين، فتقاولا، وقال أحدهما لصاحبه: إن شئت رددتها جذعة! وغضب الفريقان جميعا وقالا: أرجعا السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة -وهي الحرة- فخرجوا إليها، وانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية.

وبلغ رسول الله ﷺ ذلك فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين: الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا!!». فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية.

قال جابر بن عبد الله، ما كان طالع أكره إلينا من رسول اله ﷺ، فأومأ إلينا بيده، فكففنا وأصلح الله تعالى ما بيننا، فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى عليه وسلم، فما رأيت يوما أقبح ولا أوحش أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم(١).

ويوجه الله عباده المؤمنين ويرشدهم - بعد أن ذكر قصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام في قصة ذبح البقرة - بقوله: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٥-٧٧].

ثم يأتي التحذير الأقوى في سورة المائدة: ﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٥-٥٧].

إن هذه النصوص وغيرها: قد ربت المسلمين على معرفة كيد أهل الكتاب

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»، (٤/٢٣)، و«أسباب النزول» للواحدي، (ص٦٦)، و«أحكام القرآن» للقرطبي، (٤/ ١٥٥)، و«تفسير البغوي»، (١/ ٣٨٩).

للإسلام والمسلمين، فقطعت ما في نفوس بعض المسلمين من ود وولاء لهؤلاء الأعداء، من أجل أن يكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين فقط.

٣-المنافقون يوالون الكفار:

من أخطر ما ارتكبه المنافقون: موالاة اليهود والنصارى ضد المسلمين، وقد فضحهم القرآن في عدة مواضع، ومنها سورة الحشر، قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝١١ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١-١٢].

وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

ذكر السدي ومقاتل: أنها نزلت في عبد الله بن أبي وعبد الله بن نبتل المنافقين: فقد كان أحدهما يجالس النبي ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود(١). وهذا الآية كقوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾. [النساء: ١٤٣].

ولقد نزلت سورة كاملة فيهم هي سورة «المنافقون» بين الله فيها أنهم يظهرون ما لا يبطنون، وأنهم يحرضون على إضعاف صف المسلمين.

---

(١) «أسباب النزول» للواحدي، (ص ٢٣٥)، و«تفسير القرطبي»، (١٧/ ٣٠٤).

٤- صور موالاة الكفار[١].

١- الرضا بكفر الكافرين، أو عدم تكفيرهم، أو الشك في كفرهم، أو تصحيح أي مذهب من مذاهبهم الكافرة[٢].

ويتضح هذا الأمر في كونه ولاء للكفار: أنه يسرهم ويسعدهم أن يروا من يوافقهم على كفرهم ويجاريهم على مذاهبهم الباطلة.

ومن المعلوم في معتقد أهل السنة والجماعة: أن حب القلب وبغضه يجب أن يكون كاملا، فالذي يحب الكافر لأجل كفره؛ فهو كافر بإجماع الأمة، ولم يخالف في ذلك أحد من علماء المسلمين. يقول ابن تيمية ﷺ: «أما حب القلب وبغضه، وإرادته وكراهيته، فينبغي أن تكون كاملة جازمة لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان، وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته. ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته؛ فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل، ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله، وهذا من نوع الهوى، فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]»[٣].

إذن: فالمحبة والرضى أمران جازمان لا يخرجان عن كونهما كفرا إذا كانا

(١) من أحسن من كتب في ذلك: الإمام محمد بن عبد الوهاب ﷺ وأبناؤه، لذلك فمعظم هذه الصور منقولة من كتبه.

(٢) انظر نواقض الإسلام في: «مجموعة التوحيد»، (ص ١٢٩).

(٣) «شذرات البلاتين»، (١/ ٣٥٤)، «رسالة الأمر بالمعروف».

للكفار، أو إيمانا إذا كانا للمؤمنين.

٢- التولي العام، واتخاذهم أعوانا وأنصارا وأولياء، أو الدخول في دينهم، وقد نهى الله عن ذلك فقال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال ابن جرير في تفسيرها: «من اتخذ الكفار أعوانا وأنصارا وظهورا يواليهم على دينهم ويظاهرهم على المسلمين؛ فليس من الله في شيء. أي قد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر. ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم؛ فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل»[1].

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

قال ابن جرير رحمه الله في تفسيرها: «من تولى اليهود والنصارى من دون المؤمنين فإنه منهم. أي من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متول أحدا إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض، وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه، وصار حكمه حكمه»[2].

وقال ابن حزم: «صح أن قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ إنما

---

(١) «تفسير الطبري»، (٣/٢٢٨).
(٢) المصدر السابق، (٦/٢٧٧).

هو على ظاهره: بأنه كافر من جملة الكفار، وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين»[١].

وقال ابن تيمية: «أخبر الله في هذه الآية: أن متوليهم هو منهم، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة:٨١]. فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب. فالقرآن يصدق بعضه بعضا»[٢].

وقال ابن القيم: «إن الله قد حكم ولا أحسن من حكمه أنه من تولى اليهود والنصارى، فهو منهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ فإذا كان أولياؤهم منهم بنص القرآن كان لهم حكمهم. وهذا عام، خص منهم من يتولاهم ودخل في دينهم بعد التزام الإسلام فإنه لا يقر ولا تقبل منه الجزية. بل إما الإسلام أو السيف لأنه مرتد بالنص والإجماع، ولا يصح إلحاق من دخل في دينهم من الكفار قبل التزام الإسلام بمن دخل فيه من المسلمين؛ لأن من دان بدينهم من الكفار بعد نزول القرآن فقد انتقل من دين إلى دين خير منه - وإن كانا جميعا باطلين-، وأما المسلم فإنه قد انتقل من دين الحق إلى الدين الباطل بعد إقراره بصحة ما كان عليه وبطلان ما انتقل إليه فلا يقر على ذلك»[٣].

ويستبعد سيد قطب أن يكون بين المسلمين، من يميل إلى إتباع اليهود

---

(١) «المحلى»، (١٣/ ٣٥).

(٢) انظر: «الإيمان» لابن تيمية، (ص١٤).

(٣) «أحكام أهل الذمة»، (١/ ٦٧-٦٩).

والنصارى في الدين. وإنما المراد ولاء التحالف والتناصر. يقول رحمه الله: «إن الولاية المنهي عنها هنا ولاية التناصر والتحالف معهم، ولا تتعلق بمعنى إتباعهم في دينهم، فبعيد جدا أن يكون بين المسلمين من يميل إلى إتباع اليهود والنصارى في الدين. إنما هو ولاء التحالف والتناصر الذي كان يلتبس على المسلمين أمره، فيحسبون أنه جائز لهم بحكم ما كان واقعا من تشابك المصالح والأواصر، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام وفي أوائل العهد بقيام الإسلام في المدينة حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله. يوضح ذلك قوله تعالى بشأن المسلمين الذين لم يهاجروا: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ [الأنفال: ٧٢].

أي ولاية التناصر والتعاون وليس ولاية الدين. نقول هذا: لأن البعض يخلط بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة. ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة، وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم.

وسذاجة أية سذاجة، وغفلة أية غفلة: أن تظن أن لنا وإياهم طريقا واحدا نسلكه للتمكين للدين!! أمام الكفار والملحدين. فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة ضد المسلمين. فلندع من يغفل عن هذا ولنكن واعين للتوجيه القرآني ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية»[١].

---

(١) «في ظلال القرآن»، (٢/٩٠٩-٩١٠) - بتصرف -.

٣- الإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر، أو التحاكم إليهم دون كتاب الله كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]

ونظير هذه الآية قوله تعالى عن بعض أهل الكتاب: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠١-١٠٢].

فأخبر سبحانه أنهم اتبعوا السحر وتركوا كتاب الله كما يفعله كثير من اليهود وبعض المنتسبين إلى الإسلام. فمن كان من هذه الأمة مواليا للكفار: من المشركين أو أهل الكتاب ببعض أنواع الموالاة؛كإتيانه أهل الباطل وإتباعهم في شيء من فعالهم ومقالهم الباطل: كان له من الذم والعقاب والنفاق بحسب ذلك(١). وإن هذه الصورة من صور الموالاة قد وقع فيها معظم المنتسبين إلى الإسلام اليوم، فالإيمان ببعض ما هم عليه أمر واقع في «العالم الإسلامي» لا ينكره إلا مكابر جاهل، فها هي الببغوات من أبناء أمتنا وممن ينطقون بألسنتنا قد آمنت بالشيوعية مذهبا تارة، وبالاشتراكية تارة أخرى، وبالديمقراطية أو العلمانية أو الليبرالية نظاما، فأخذت هذه المبادئ الكافرة وطبقتها في بلاد المسلمين ملزمة الناس بعبادتها «في الطاعة والانقياد والتنفيذ»، ونصبت العداء لكل مسلم موحد ينادي في الأمة أن تعود إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) انظر: «فتاوى ابن تيمية»، (٢٨/ ١٩٩-٢٠١).

وإن من الإيمان ببعض ما هم عليه: مسألة فصل الدين عن الدولة وإنه لا علاقة للإسلام بالسياسة، فهذه أيضا فرع للقضية السابقة، لم توجد إلا في أوروبا أيام الاضطهاد الكنسي لرجال العلم. ولكن أين الإسلام دين العدل ودين السياسة ودين القوة من «هرطقة» رجال الكنيسة؛ حتى يأتي بعض الأقزام فيستورد تلك السموم من أوروبا ليلبس الإسلام قناعا مزيفا فيقول: الإسلام علاقة بين العبد وربه، والسياسة لها رجالها ولها قضاياها التي لا تمت إلى الدين بصلة[١].

٤- مودتهم ومحبتهم: وقد نهى الله عنها بقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أخبر الله أنك لا تجد مؤمنا يواد المحادين لله ورسوله، فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده، وهو موالاة أعداء الله. فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه؛ كان ذلك دليلا على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب»[٢].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

٥- الركون إليهم:

---

(١) انظر: «العلمانية وآثارها في العالم الإسلامي»؛ للشيخ سفر الحوالي.
(٢) «الإيمان»، (ص ١٣).

قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]

قال القرطبي: الركون حقيقته: الاستناد والاعتماد، والسكون إلى الشيء والرضا به، وقال قتادة: معنى الآية: لا توادوهم ولا تطيعوهم. وقال ابن جريج: لا تميلوا إليهم.

وهذه الآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم، فإن صحبتهم كفر أو معصية. إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة كما قيل:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدي[1]

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥].

وإذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق، صلاة الله وسلامه عليه، فكيف بغيره؟[2].

٦- مداهنتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين: قال تعالى:

---

(١) «تفسير القرطبي»، (٩/١٠٨)، وانظر: «البغوي والخازن»، (٣/٢٥٦). أما البيت فهو لطرفة بن العبد

(٢) «مجموعة التوحيد»، (ص١١٧).

ببيت شعر يكون هكذا

كما في ص٣٣

﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

والمداهنة والمجاملة والمداراة على حساب الدين أمر وقع فيه كثير من المسلمين اليوم، وهذه نتيجة طبيعية للانهزام الداخلي في نفوسهم. حيث رأوا أن أعداء الله تفوقوا في القوة المادية فانبهروا بهم، ولأمر ما رسخ وترسب في أذهان المخدوعين أن هؤلاء الأعداء هم رمز القوة ورمز القدوة - فأخذوا ينسلخون من تعاليم دينهم مجاملة للكفار ولئلا يصمهم أولئك الكفرة بأنهم «متعصبون»! وصدق المصطفى ﷺ، إذ يقول في مثل هؤلاء: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا وذراعا ذراعا حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم».

قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»[١].

إن المداهنة والمجاملة قد تبدأ بأمر صغير ثم تكبر وتنمو حتى تؤدي - والعياذ بالله- إلى الخروج من الملة. وهذه إحدى مزالق الشيطان، فليحذر المسلم منها على نفسه، وليعلم أنه هو الأعز وهو الأقوى إذا امتثل منهج الله وتقيد بشرعه ومقتضيات عقيدته.

ومن الأمور الواضحة في تاريخ المسلمين: أن من أكبر العوامل في انتصارهم - بعد الإيمان بالله ورسوله - الاعتزاز بالإسلام. يصدق ذلك ويؤيده قول الفاروق رضي الله عنه: «إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٦٩٥٢).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (١/ ٦٢) كتاب الإيمان. وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في تلخيصه.

٧- اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

نزلت هذه الآية في أناس من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين، ويواصلون رجلا من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والجوار؛ فأنزل الله هذه الآية تنهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة منهم عليهم(١).

وبطانة الرجل: خاصته، تشبيها ببطانة الثوب التي تلي بطنه؛ لأنهم يستبطنون أمره ويطلعون منه على ما لا يطلع عليه غيرهم. وقد بين الله العلة في النهي عن مباطنتهم فقال: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾؛ أي لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد، ثم إنهم يودون ما يشق عليكم من الضر والهلاك.

والعداوة التي ظهرت منهم: شتم المسلمين والوقيعة فيهم، وقيل: بإطلاع المشركين على أسرار المسلمين(٢). وفي سنن أبي داود قوله ﷺ: «**الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»(٣).

٨- طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به(٤).

---

(١) «أسباب النزول»؛ للواحدي، (ص ٦٨).

(٢) انظر: «تفسير البغوي»، (١/ ٤٠٩)، و«تفسير ابن كثير»، (٢/ ٨٩).

(٣) برقم (٤٨٣٣)، وحسنه الألباني.

(٤) «مجموعة التوحيد»، (ص ١١٧).

قال تعالى ناهيا عن ذلك: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩] وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١][(١)]

٩- مجالستهم، والدخول عليهم وقت استهزائهم بآيات الله: قال تعالى في النهي عن مجالستهم: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

قال ابن جرير: «قوله ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي إنكم إذا جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها وأنتم تسمعون فأنتم مثلهم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم وأنتم تسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها. وفي الآية دلالة واضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من الكفرة والمبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم»[(٢)].

---

(١) «تفسير ابن كثير»، (٣/ ٣٢٢).

(٢) «تفسير الطبري»، (٥/ ٣٣٠).

وفي الحديث: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابكم»[(١)].

١٠- توليتهم أمرا من أمور المسلمين:

كالإمارة والكتابة وغيرها، والتولية شقيقة الولاية، لذلك فتوليتهم نوع من توليهم. وقد حكم الله أن من تولاهم فإنه منهم. ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم. والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع البراءة والولاية أبدا.

والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبدا. والولاية صلة فلا تجامع معاداة الكافر أبدا. ولو علم ملوك الإسلام بخيانة النصارى الكتاب - مثلا- ومكاتبتهم الفرنج أعداء الإسلام، وتمنيهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله، وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان: لثناهم ذلك عن تقريبهم وتقليدهم الأعمال. فهذا الملك «الصالح» كان في دولته نصراني يسمى: محاضر الدولة أبا الفضل بن دخان ولم يكن في المباشرين أمكن منه، كان قذى في عين الإسلام، وبثرة في وجه الدين. بلغ من أمره أنه وقع لرجل نصراني أسلم برده إلى دين النصرانية وخروجه من الملة الإسلامية، ولم يزل يكاتب الفرنج بأخبار المسلمين، وأعمالهم، وأمر الدولة وتفاصيل أحوالها.

وكان مجلسه معمورا برسل الفرنج والنصارى وهم مكرمون لديه، وحوائجهم مقضية عنده، ويحمل لهم الإدرار والضيافات، وأكابر المسلمين محجوبون عن الباب لا يؤذن لهم، وإذا دخلوا لم ينصفوا في التحية ولا في

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٩) ومسلم (٢٩٨٠).

الكلام. وحدث أن اجتمع في مجلس «الصالح» أكابر الناس من الكتاب والقضاة والعلماء فسأل السلطان بعض الجماعة عن أمر أفضى به إلى ذكر مخازي النصارى، فبسط لسانه في ذلك وذكر بعض ما هم عليه من الأفعال والأخلاق. وقال من جملة كلامه: إن النصارى لا يعرفون الحساب، ولا يدرونه على الحقيقة لأنهم يجعلون الواحد ثلاثة والثلاثة واحدا. والله تعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. وأول أمانتهم وعقد دينهم: «بسم الأب والابن وروح القدس إله واحد» فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء وقال في قصيدة له:

كيف يدري الحساب من جعل الوا ... حد رب الورى تعالى ثلاثه

ثم قال: كيف تأمن أن يفعل في معاملة السلطان كما فعل في أصل اعتقاده، ويكون مع هذا أكثر النصارى أمانة؟ وكلما استخرج ثلاثة دنانير دفع إلى السلطان دينارا وأخذ لنفسه اثنين، ولا سيما وهو يعتقد ذلك قربة وديانة؟.

وانصرف القوم واتفق أن كبت النصراني بطنته، وظهرت خيانته؛ فأريق دمه وسلط على وجوده عدمه(١).

١١- استئمانهم وقد خونهم الله: قال تعالى: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

---

(١) «أحكام أهل الذمة» لابن القيم، (١/ ٢٤٢-٢٤٤) - بتصرف يسير -.

١٢- الرضا بأعمالهم والتشبه بهم، والتزيي بزيهم[١].

١٣- البشاشة لهم والطلاقة وانشراح الصدر لهم وإكرامهم وتقريبهم[٢].

١٤- معاونتهم على ظلمهم ونصرتهم:

ويضرب القرآن لذلك مثالين هما: امرأة لوط التي كانت ردءا لقومها، حيث كانت على طريقتهم، راضية بأفعالهم القبيحة، تدل قومها على ضيوف لوط. وكذلك فعل امرأة نوح[٣].

١٥- مناصحتهم والثناء عليهم ونشر فضائلهم[٤].

وهذه الصورة ظهرت واضحة في العصور الأخيرة، فقد رأينا «أفراخ المستشرقين» - مثلا- ينشرون فضائلهم وأنهم أصحاب المنهج العلمي السديد و. .و. . الخ، كذلك جاء من ينشر «فضائل» الغرب أو الشرق مضفيا عليها ألقاب التقدم والحضارة والرقي، وواصما الإسلام والمنتسبين إليه بالرجعية والجمود والتأخر عن مسايرة الركب الحضاري والأمم المتقدمة.

١٦- تعظيمهم وإطلاق الألقاب عليهم:

مثل: السادة والحكماء ومبادأتهم بالسلام، «ومما يجب النهي عنه ما يفعله كثير من الجهال في زماننا إذا لقي أحدهم عدو الله سلم عليه ووضع يده على صدره إشارة إلى أنه يحبه محبة ثابتة في قلبه. أو يشير بيده إلى رأسه

(١) «مجموعة التوحيد»، (ص١١٧).
(٢) المرجع السابق.
(٣) «تفسير ابن كثير»، (٦/ ٢١٠).
(٤) «مجموعة التوحيد»، (ص١١٧)، ورسائل الشيخ سعد بن عتيق، (ص١٠١).

إشارة إلى أن منزلته عنده على الرأس، وهذا الفعل المحرم يخشى على فاعله أن يكون مرتدًا عن الإسلام؛ لأن هذا من أبلغ الموالاة والموادة والتعظيم لأعداء الله»(١).

والتعظيم واللقب الرفيع رمز للعزة والتقدير، وهما مقصورتان على المؤمن، أما الكافر فله الإهانة والذلة. وقد ورد في الحديث الصحيح النهي عن مبادأتهم بالسلام فقال ﷺ: **«لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه»**(٢)

١٧ - السكنى معهم في ديارهم وتكثير سوادهم(٣).

قال رسول الله ﷺ: **«من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»**(٤). وقال: **«لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم، فمن ساكنهم أو جامعهم فليس منا»**(٥).

١٨ - التآمر معهم، وتنفيذ مخططاتهم، والتجسس من أجلهم، ونقل عورات المسلمين وأسرارهم إليهم، والقتال في صفهم(٦):

وهذه الصورة من أخطر ما ابتليت به أمتنا في هذا العصر. ذلك أن وجود

---

(١) «تحفة الإخوان»؛ للشيخ حمود التويجري، (١٩).
(٢) أخرجه مسلم (٢١٦٧).
(٣) «الرسائل المفيدة»؛ للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، (ص٦٤).
(٤) أخرجه أبو داود (٢٧٨٧)، وحسنه الألباني.
(٥) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٢٦٢٧)، وقال: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.
(٦) «الإيمان: حقيقته - أركانه - نواقضه»؛ للدكتور محمد نعيم ياسين، (ص١٤٧).

ما يسمى في المصطلح الحديث «الطابور الخامس» قد أفسد أجيال الأمة في كل مجال؛ سواء في التربية والتعليم، أم في السياسة وشؤون الحكم، أم في الأدب والأخلاق، أم في الدين والدنيا معا. وصدق الشاعر محمود أبو الوفا عندما قال حين خرج الاستعمار الإنجليزي من مصر: «خرج الإنجليز الحمر وبقي الإنجليز السمر»!

١٩ - من هرب من دار الإسلام إلى دار الحرب بغضا للمسلمين وحبا للكافرين[١].

٢٠ - من انخرط في الأحزاب العلمانية أو الإلحادية؛ كالشيوعية والاشتراكية والقومية والماسونية والليبرالية، وبذل لها الولاء والحب والنصرة[٢].

٥- ما يقبل من الأعذار، وما لا يقبل في هذه الصور:

قد يعتذر بعض الموالين للكفار بأنهم يخافون على سلطانهم وأموالهم ومراكزهم وغير ذلك من المخاوف التي لا تصح، ولا يعتبرها الله عذرا لهم فيعذرهم من أجلها؛ لأنها جميعا من تزيين الشيطان وتسويله، وحب الدنيا والطمع في زينتها.

والله ﷻ لم يقبل عذرًا لأحد في إظهار موالاته للكفار وطاعتهم وموافقتهم على دينهم، إلا عذرا واحدا هو: الإكراه. قال تعالى: ﴿مَن

(١) «الردة بين الأمس واليوم»، (ص٣٣).
(٢) المصدر السابق، (ص٤٠).

كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٧].

وقال سبحانه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ [آل عمران:٢٨]

والإكراه لا ينفع أحدا فيما يتعلق بالرضا القلبي، والميل الباطني إلى الكفار؛ لأنه غير مأذون فيه على أية حال؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، ولأن الإكراه لا سلطان له على القلوب. فإنه لا يعلم ما في القلب إلا الله.

فمن والى الكفار بقلبه ومال إليهم فهو كافر على كل حال، فإن أظهر موالاته بلسانه أو بفعله عومل في الدنيا بكفره وفي الآخرة يخلد في النار، وإن لم يظهرها بفعل ولا قول وعمل بالإسلام ظاهرا عصم ماله ودمه، وهو منافق في الدرك الأسفل من النار(١).

٦- متى تكون التقية؟

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨].

(١) انظر: «الإيمان»؛ للدكتور محمد نعيم ياسين، (ص١٤٧-١٤٨).

قال البغوي: «نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم، إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان؛ دفعا عن نفسه، من غير أن يستحل دما حراما أو مالا حراما، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين. والتقية لا تكون إلا من خوف القتل، ومع سلامة النية، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ ثم هذه رخصة فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم»[١].

وقال ابن القيم: «معلوم أن التقاة ليست بموالاة، ولكن لما نهاهم عن موالاة الكفار اقتضى ذلك معاداتهم والبراءة منهم، ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال، إلا إذا خافوا من شرهم؛ فأباح لهم التقية، وليست التقية موالاة لهم»[٢].

«ولأن باب التقاة باب يمكن أن ينفذ منه الشيطان بسهولة يزين للضعفاء ومرضى القلوب أن يركنوا إلى أعداء الله؛ قال الله بعدها مباشرة: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ يحذركم في الدنيا أن تتخذوا هذا الباب تكأة، وتستسهلوا هذه الكبيرة - وهي موالاة أعداء الله - وينذركم أن إليه المصير؛ فيجازيكم على ما فعلتم في الدنيا، فلا تحسبوا أن ترتكبوا هذه الكبيرة في الأرض - مخادعين أنفسهم أو مخادعين الناس- ثم تنجوا من عذاب الله في الآخرة»[٣].

---

(١) «تفسير البغوي»، (١/ ٣٣٦)، وانظر: «أحكام القرآن «للجصاص» (٢/ ٢٨٩).
(٢) «بدائع الفوائد»، (ج٣/ ٦٩).
(٣) «دراسات قرآنية»، (ص٣٢٦-٣٢٧).

وقال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران:٢٨]: «أي إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم؛ فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل»(١).

٧- ما هو الإكراه؟

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت الآية - الأولى- في عمار بن ياسر، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه وأمه سمية وصهيبا وبلالا وخبابا وسالما، فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين ووجئ قبلها بحربة فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام، وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها، فأخبر النبي ﷺ بأن عمارًا كفر، فقال: «كلا: إن عمارًا ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»(٢) فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: «إن عادوا لك فعد لهم بما

---

(١) «تفسير الطبري»، (٣/٢٢٨).

(٢) هذا اللفظ ضعيف، وإنما اللفظ الصحيح هو ما رواه النسائي (٥٠٠٧) هكذا: «ملئ عمار إيمانا إلى مشاشه». وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٠٧).

قلت»[١] فأنزل الله هذه الآية[٢].

وقال الطبري في معنى الآية: «من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره على الكفر فنطق بكلمة الكفر بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، موقن بحقيقته، صحيح عليه عزمه، غير مفسوح الصدر بالكفر، لكن من شرح بالكفر صدرا اختاره وآثره على الإيمان، وباح به طائعا: فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم»[٣].

وسبب ذلك: أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة؛ فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا[٤].

٨- شروط الإكراه:

قال ابن حجر: شروط الإكراه أربعة:

١- أن يكون فاعله قادرا على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزا عن الدفع ولو بالفرار.

٢- أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.

٣- أن يكون ما هدد به فوريا، فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك غدا، لا

---

(١) حديث مرسل ورجاله ثقات. انظر: «فتح الباري»: (١٢/ ٣١٢).

(٢) «أسباب النزول»؛ للواحدي (ص١٦٢)، وانظر: «تفسيرالطبري» (١٤/ ١٨٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٢٥)

(٣) «تفسير الطبري»، (١٤/ ١٨٢).

(٤) «تفسير ابن كثير»، (٤/ ٥٢٥).

يعد مكرها، ويستثنى ما إذا ذكر زمنا قريبا جدا، أو جرت العادة بأنه لا يخلف.

٤- أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره.

ولا فرق بين الإكراه على القول والفعل عند الجمهور، ويستثنى من الفعل ما هو محرم على التأبيد؛ كقتل النفس بغير حق[١].

قال الخازن: «قال العلماء: يجب أن يكون الإكراه الذي يجوز له أن يتلفظ معه بكلمة الكفر أن يعذب بعذاب لا طاقة له به؛ مثل التخويف بالقتل والضرب الشديد، والإيلامات القوية، مثل التحريق بالنار ونحوه»[٢]. وأجمعوا أيضا: على أن من أكره على الكفر لا يجوز له أن يتلفظ بكلمة الكفر تصريحا، بل يأتي بالمعاريض، وبما يوهم أنه كفر، فلو أكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب على الإيمان، غير معتقد ما يقوله من كلمة الكفر، ولو صبر حتى قتل كان أفضل؛ لفعل ياسر وسمية وصبر بلال على العذاب[٣].

لقد كان بلال رضي الله عنه تفعل به الأفاعيل حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم، ويقول: أحد أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها[٤].

(١) «فتح الباري»، (١٢/ ٣١١-٣١٢).
(٢) «تفسير الخازن»، (٤/ ١١٧).
(٣) «تفسير الخازن»، (٤/ ١١٧).
(٤) انظر «تفسير ابن كثير»، (٤/ ٥٢٥).

وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع،فلم يزل يقطعه إربا إربا، وهو ثابت على ذلك[1].

وكما فعل الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي: فإنه لما أسرته الروم جاءوا به إلى ملكهم فقال له: تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت. فقال: إذا أقتلك، قال: أنت وذاك، فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدر - وفي رواية ببقرة من نحاس فأحميت - وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكى، فطمع فيه ودعاه فقال له: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة من جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله!

وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياما ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ قال: أما أنه قد حل لي ولكن لم أكن لأشمتك في، فقال له الملك: فقبل رأسي وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين، قال: نعم، فقبل رأسه؛ فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال

(١) «تفسير ابن كثير»، (٤/ ٥٢٥).

عمر بن الخطاب: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام فقبل رأسه(١).

٩- أنواع الإكراه:

١- الإلجاء: حيث ينعدم الرضا والاختيار، وتنتفي الإرادة والقصد، وذلك بالوقوع تحت التعذيب الشديد أو نحو ذلك، وهذه الحالة هي التي نزلت فيها آية النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

٢- التهديد: حيث ينعدم الرضا، ولا ينعدم الاختيار تماما، وهذه في مثل الحالة التي يختار فيها الإنسان أخف الضررين؛ مثل حال شعيب عليه السلام مع قومه، إذ خيروه بين العودة إلى الكفر أو الخروج من قريتهم: ﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩].

فلا تجوز الاستجابة لمثل هذا الإكراه لهذا النص، ولقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

---

(١) «تفسير ابن كثير»، (٤/٥٢٦).

٣- الاستضعاف: وهنا لا تعذيب ولا تهديد، ولكن المستضعف داخل تحت وضع مفروض عليه من غيره؛ كالمقيم في مكة بعد هجرة المسلمين عنها، فإذا كان دخوله تحت هذا الوضع لعجزه عن دفعه وعن الخروج منه، ولو أمكنه ذلك لفعل، مهما كانت تضحياته وتكاليفه؛ فهذا قد عفا الله عنه(١).

قال ابن تيمية: «تأملت المذاهب فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكره عليه، فليس الإكراه المعتبر في كلمة الكفر كالإكراه المعتبر في الهبة ونحوها، فإن أحمد قد نص في غير موضع، أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب وقيد، ولا يكون الكلام إكراهاً»(٢).

المسألة الثانية: مظاهرة الكفار على المسلمين، والفرق بين التولي والموالاة والاستعانة:

قال الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ - رحمهما الله -: «التولي كفر يخرج من الملة.. والموالاة كبيرة من كبائر الذنوب»(٣).

وقال الشيخ صالح آل الشيخ:

---

(١) «المصدر السابق»، (ص٥٢٦).
(٢) «الفتاوى الكبرى»، (٥ / ٤٨٩).
(٣) «الدرر السنية»، (٨ / ٤٢٢). مع ملاحظة أن بعض العلماء قد يعبر عن «التولي» بالموالاة. فالعبرة بالمقصد. ولامشاحة في الاصطلاح.

«عندنا في الشرع، وعند أئمة التوحيد، لفظان لهما معنيان يلتبس أحدهما بالآخر عند كثيرين:

الأول: التولي.

الثاني: الموالاة.

التولي: مكفر. والموالاة: غير جائزة

وأما الاستعانة بالكافر واستئجاره؛ فهي جائزة بشروطها.

فهذه ثلاث مسائل:

أما التولي: فهو الذي نزل فيه قول الله جل وعلا: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وضابط التولي: هو نصرة الكافر على المسلم وقت حرب المسلم والكافر، قاصدا ظهور الكفار على المسلمين.

فأصل التولي: المحبة التامة، أو النصرة للكافر على المسلم، فمن أحب الكافر لدينه، فهذا قد تولاه توليا، وهذا كفر.

وأما موالاة الكفار: فهي مودتهم، ومحبتهم لدنياهم، وتقديمهم ورفعهم، وهي فسق، وليست كفرا. قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

قال أهل العلم: ناداهم باسم الإيمان، وقد دخل في النداء من ألقى المودة للكفار، فدل على أن فعله ليس كفرا، بل ضلال عن سواء السبيل. ؛

اسود

وذلك لأنه ألقى المودة وأسر لهم؛ لأجل الدنيا، لا شكا في الدين.

ولهذا قال النبي ﷺ لمن صنع ذلك[١]: «ما حملك على ما صنعت»؟

قال: «والله ما بي إلا أن أكون مؤمنا بالله ورسوله، أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي».

فمن هذا يتبين: أن مودة الكافر والميل له لأجل دنياه ليس كفرا إذا كان أصل الإيمان والاطمئنان به حاصلا لمن كان منه نوع موالاة.

وأما الاستعانة بالكافر أو استئجاره: فهذا قال أهل العلم بجوازه في أحوال مختلفة، يفتي أهل العلم في كل حال وفي كل واقعة بما يرونه يصح أن يفتى به»[٢].

وقال الشيخ صالح آل الشيخ - أيضا -[٣]: «أما مظاهرة المشركين وإعانتهم على المسلمين؛ فهذا من نواقض الإسلام، كما هو مقرر في كتب فقه الحنابلة، وذكره العلماء، ومنهم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في النواقض العشر: في الناقض الثامن.

وهذا الناقض مبني على أمرين: الأول: هو المظاهرة، والثاني: هو الإعانة، قال: «مظاهرة المشركين وإعانتهم على المسلمين».

والمظاهرة: أن يجعل طائفة من المسلمين أنفسهم ظهرا للمشركين،

---

(١) وهو حاطب بن أبي بلتعة - رضي الله عنه -، كما سيأتي إن شاء الله.

(٢) «الضوابط الشرعية لموقف المسلم في الفتن»، (ص٥٠-٥٢).

(٣) «فتاوى العلماء الكبار في الإرهاب..»؛ لأحمد بن سالم المصري، (ص ٢٨٥-٢٨٧).

يحمونهم فيما لو أراد طائفة من المؤمنين أن يقعوا فيهم، يحمونهم وينصرونهم ويحمون ظهورهم ويحمون بيضتهم، وهذا مظاهرة؛ بمعنى أنه صار ظهرا لهم، فقول الشيخ ﷺ: «مظاهرة المشركين وإعانتهم على المسلمين» مركبة من الأمرين:

١- المظاهرة؛ بأن يكون ظهرا لهم، بأي عمل يكون ظهرا يدفع عنهم، ويقف معهم، ويضرب المسلمين لأجل حماية هؤلاء.

٢- الإعانة: إعانة المشرك، والإعانة الكفرية ضابطها: أن يعين قاصدا ظهور الكفر على الإسلام؛ لأن مطلق الإعانة غير مكفر، لأن حاطبا -رضي الله عنه- حصل منه إعانة للمشركين على الرسول ﷺ بنوع من العمل: إعانة بكتابة بسر الرسول ﷺ، لكن النبي ﷺ استفصل منه، فدل على أن الإعانة تحتاج إلى استفصال، والله جل وعلا قال في مطلق العمل هذا: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، ولكنه ليس بمكفر إلا بقصد، فلما أجاب حاطب بأنه لم يكن قصده ظهور الكفر على الإسلام، قال: «يا رسول الله، والله ما فعلت هذا رغبة في الكفر بعد الإسلام، ولكن ما من أحد من أصحابك إلا وله يد يدفع بها عن أهله وماله، وليس لي يد في مكة، فأردت أن يكون لي بذلك لي يد»، فقال النبي ﷺ: «**إن الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[1].

فحاطب فعل أمرين:

(١) سيأتي تخريجه - إن شاء الله -.

الأمر الأول: ما استفصل فيه؛ وهي مسألة: هل فعله قاصدا ظهور الكفر على الإسلام، ومحبة للكفر على الإسلام، لو فعل ذلك كان مكفرا، ولم يكن حضوره لغزوة بدر غافرا لذنبه؛ لأنه يكون خارجا من أمر الدين.

الأمر الثاني: أنه حصل منه نوع إعانه لهم؛ وهذه فعلة فيها ضلال وفيها ذنب، والله جل وعلا قال: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ . . . ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ . . . ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾.

وهذا يدل على أن الاستفصال في هذه المسألة ظاهر.

فالإعانة فيها استفصال، أما المظاهره بأن يكون ظهرا لهم يدفع عنهم، ويدرأ عنهم ما يأتيهم، ويدخل معهم ضد المسلمين في حال حربهم لهم؛ هذا من نواقض الإسلام التي بينها أهل العلم».

قلت: ولذا قال الشيخ ابن باز ﷺ: «وقد أجمع علماء الإسلام على أن من ظاهر الكفار على المسلمين وساعدهم بأي نوع من المساعدة فهو كافر مثلهم»[(١)].

المسألة الثالثة: مدح الكفار:

لابد عند الحديث عنها من عدم الخلط بين أمرين: (مدحهم) و(إنصافهم).

---

(١)) «مجموع فتاوى الشيخ ابن باز»، (١/ ٢٧٤).

أما مدحهم على سبيل الإعجاب والإكبار؛ فإنه لا يجوز، وأما إنصافهم - عند الحاجة -؛ فيجوز بما هو فيهم؛ لكي لا يقع المسلم في الظلم، والإنصاف خبر مجرد، لا علاقة له بالإعجاب والإكبار. وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾، وقول عمرو بن العاص ﷺ في صحيح مسلم[1] لما قال المستورد القرشي عنده: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»، **فقال له عمرو: أبصر ما تقول؟ قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة وجميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك».**

قال الشيخ صالح آل الشيخ في «الضوابط الشرعية لموقف المسلم في الفتن»[2]: «قال أهل العلم: هذا الكلام من عمرو بن العاص لا يريد به أن يثني على الروم والنصارى الكفرة؛ لا! ولكن ليبين للمسلمين سبب بقاء الروم وكونهم أكثر الناس إلى أن تقوم الساعة لأنهم عند حدوث الفتن هم أحلم الناس؛ ففيهم من الحلم ما يجعلهم ينظرون إلى الأمور ويعالجونها؛ لأجل أن لا تذهب أنفسهم ، ويذهب أصحابهم».

وقال الشيخ عبدالرحمن البراك: «ذكر ما عند الكفار من أخلاق محمودة على وجه المدح لهم والإعجاب بهم وتعظيم شأنهم حرام؛ لأن ذلك مناقض

---

(١) برقم (٢٨٩٨).
(٢) (ص ١٨).

لحكم الله فيهم، والله قد ذمهم وتوعدهم وشبههم بالأنعام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾»[1].

وقال الشيخ عبدالله الأهدل رحمه الله في «السيف البتار على من يوالي الكفار»[2]: «أما حكم من يمدحهم فهو فاسق، عاص مرتكب لكبيرة، يجب عليه التوبة منها، والندم عليها، هذا إذا كان مدحه لذات الكفار من غير ملاحظة صفة الكفر التي فيهم، فإن مدحهم من حيث صفة الكفر فهو كافر، كأنه مدح الكفر الذي ذمته جميع الشرائع، وقد حذر رسول الله ﷺ من مدح المسلم بما لا يعلم المرء؛ فقال عليه الصلاة والسلام، وقد سمع قوما يمدحون شخصا: «لقد قطعتم عنق الرجل- أي أهلكتموه -»[3]. أما مدح العدل بما فيه تزكية له عند حاكم أو تعريفا بشأنه؛ فهو جائز بل قد يجب،

(١) نقلا عن موقع «شبكة نور الإسلام» على شبكة الأنترنت.

(٢) (ص ٢٤ - ٢٦). ونقلها عنه الشيخ صديق حسن خان في كتابه «العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة»، (ص ٢٤٥ - ٢٤٧). وانظر: «الفصل المبين في مسألة الهجرة ومفارقة المشركين»؛ للشيخ حسين العوايشة، (ص ١٣٦ - ١٤١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٦٠) ومسلم (٣٠٠١) بلفظ: «لقد أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل».

ومدح المسلم الفاسق معصية لحديث: «إذا مدح الظالم غضب الله ﷻ»[١]، فإذا كان ذلك في الظلم الأصغر فما بالك بالظلم الأكبر؟ وفي حديث أخرجه أبو يعلى والبيهقي عن أنس، وابن عدي عن بريدة: «إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز لذلك العرش»[٢]. حاصله أن مدح الكفار لكفرهم ارتداد عن الإسلام، ومدحهم مجردا عن هذا القصد كبيرة يعزر مرتكبها بما يكون زاجرا له، وأما من يقول إنهم أهل عدل، فإن أراد أن الأمور الكفرية التي منها أحكامهم القانونية عدل فقد كفر، والله ﷻ قد ذمها، وشنع عليها، وسماها عتوا، وعنادا، وطغيانا، وإفكا وإثما مبينا، وخسرانا مبينا، وبهتانا، والعدل إنما هو شريعة الله التي حواها كتابه، وسنة نبيه، فإن الله يأمر بالعدل. فلو كانت أحكام النصارى عدلا لكانت مأمورا بها، ولزم على ذلك التناقض والتدافع في الرد على النصارى، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، فالله ﷻ حكمه هو العدل الحسن لا غيره، فأنى يكون لحكم النصارى؟ لأن كل عدل فهو حسن، فقد بطلت دعوى المذكورين، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٦٠]، فهؤلاء سموا ما أمرهم الله تعالى بالكفر به عدلا، فقد غالوا في ضلالهم، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا، وإن أراد العدل المجازي، الذي هو عمارة الدنيا بترك الظلم الذي يخرب الدنيا، فلا يلزم منه الكفر، لكنه يزجر عن ذلك الزجر البليغ، وأما ما يروى عنه

---

(١) روي بلفظ الحديث الذي بعده.

(٢) وضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة»، (برقم ٥٩٥).

ﷺ: «ولدت في دولة العادل أنو شروان»[١]؛ فقد أراد ﷺ العدل المجازي، لاسيما والملك المذكور كان في زمن الفترة كما هو معلوم، على أن الحديث المذكور لا أصل له كما ذكره ابن حجر في النعمة الكبرى، قال: وإطلاق العادل عليه بفرض وروده؛ لتعريفه بالاسم الذي كان يدعى به، لا للشهادة له بذلك، فإنه كان يحكم بغير حكم الله. قال السخاوي: الحديث المذكور موضوع، ولو صح لم يكن في وصفه بالعدل بأس، فإنه كان لا يجور على رعيته ولا يظلمهم في حقوق الدنيا، فعدله بالنسبة لذلك لا ينافي كفره وظلمه لنفسه بجهله، والله أعلم».

وقال الشيخ عبدالرحمن السحيم[٢]: «لا يجوز مدح الكفار وإن وجدت عندهم بعض الصفات الجميلة، وذلك لعدة اعتبارات:

الاعتبار الأول: أن ما عندهم من السوء يغلب على ما عندهم من الحسن.

الاعتبار الثاني: أن ذلك متضمنا مدح من ذمه الله، ومحبة من أبغضه الله، وتقريب من أبعده الله.

الاعتبار الثالث: أن مادح الكفار يغفل عن سوء بواطنهم التي ذمها الله في كتابه.

الاعتبار الرابع: أن ما عند المسلمين من خير وتراحم وتعاطف وتكاتف، لا ينكره إلا معاند، وإن وجد عندهم بعض التخاصم، أو التخلف عن ركب

---

(١) لا أصل له، كما قاله السخاوي في «المقاصد الحسنة»، برقم (١٢٧١). وانظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة»؛ للألباني، (برقم ٩٩٧).

(٢) نقلا عن موقع «مشكاة» على شبكة الأنترنت - باختصار -.

الحضارة المادية، إلا أن أخلاق المسلمين في هذا أرفع مقاما وأعلى شأنا، وهذا ما يعترف به عقلاء ومنصفو الغرب، حتى تمنى كثير منهم أن لو ولد في بلاد الإسلام! وما أكثر ما يعجب الغربيون بالتلاحم الأسري عند المسلمين، وبالوفاء الذي يسمعون عنه سماعا!

الاعتبار الخامس: أن مادح الكفار اليوم كمادح أبي جهل وكفار قريش! فإن القوم كان لديهم بقية أخلاق حميدة، مثل: الوفاء بالعهد، وحفظ الجوار والذمم، وتعظيم الحرم... إلى غير ذلك، إلا أن تلك الخصال الحميدة لا تقابل ما عند القوم من ظلم وجور وكفر!

الاعتبار السادس - والأهم -: أن المدح لا يأتي من فراغ، وإنما يأتي من إعجاب كامن في نفوس المادحين المعجبين بالغرب، وهذا نتيجة الانبهار بالحضارة الغربية.

الاعتبار السابع: أن قائل ذلك القول قد شابه اليهود في قوله، كما أخبر الله ﷻ عنهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾.

وأخيرًا: ينبغي التفريق بين ذكر ما عندهم من جميل صفات من باب الإنصاف، وبين مدحهم بسبب ذلك والإعجاب بهم؛ فالأول مطلوب؛ لأن المسلم يجب أن يكون منصفا حتى مع أعدائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. ومن هذا الباب ما رواه مسلم عن المستورد القرشي عند عمرو بن العاص سمعت

رسول الله ﷺ يقول: تقوم الساعة والروم أكثر الناس - الحديث -».

المسألة الرابعة: التجنس بجنسية دولة كافرة:

سئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، برئاسة الشيخ عبد العزيزبن باز رحمه الله عن حكم التجنس بجنسية دولة كافرة؛ فأجابت: «لا يجوز له أن يتجنس باختياره بجنسية دولة كافرة؛ لما في ذلك من التزامه بنظامهم والتحاكم إلى قوانينهم، وتبعيته لهم، وموالاته إياهم».

وفي جواب آخر: «لا يجوز لمسلم أن يتجنس بجنسية بلاد حكومتها كافرة، لأن ذلك وسيلة إلى موالاتهم والموافقة على ما هم عليه من الباطل، أما الإقامة بدون أخذ الجنسية فالأصل فيها المنع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ الآية، ولقول النبي ﷺ: **«أنا بريء من كل مسلم يقيم بين المشركين»**(١)، ولأحاديث أخرى في ذلك، ولإجماع المسلمين على وجوب الهجرة من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام مع الاستطاعة؛ لكن من أقام من أهل العلم والبصيرة في الدين بين المشركين لإبلاغهم دين الإسلام ودعوتهم إليه فلا حرج عليه، إذا لم يخش الفتنة في دينه، وكان يرجو التأثير فيهم وهدايتهم»(٢).

وقال الشيخ عبدالله بن منيع في خاتمة بحثه «حكم التجنس بجنسية دولة

---

(١) أخرجه أبوداود (٢٦٤٥)، وصححه الألباني.

(٢) فتاوى اللجنة، (٢ / ٦٩).

غير إسلامية»[١]: «فإذا تأملت هذه الآيات وما دلت عليه، وكلام العلماء، وقارنت بينها وبين ما يفعله بعض الناس في هذه الأزمنة من طلب التجنس، الذي من لوازمه أن يصير المتجنس تابعا لقوانين وضعية نصوصها صريحة بالحكم بغير ما أنزل الله، وإباحة الزنا، وتعاطي الخمور، وارتكاب الفجور، وتحليل الربا، والاكتساب من طرق غير مشروعة، ومنع تعدد الزوجات، واعتبار ما زاد على الواحدة من قبيل الزنا المعاقب عليه، وإنكار نسب ما ولد له من زوجة أخرى حالة وجودها عنده، ولا حق له في نفقة ولا إرث، وفك العصمة من الزواج لا يتم إلا إذا كان لدى المحكمة الرسمية عندهم، وقسمة المواريث على طريقة مخالفة للفرائض الشرعية، وكون المتجنس مجبورا على الخدمة العسكرية في جيش الدولة التي انتمى إليها بهذه الجنسية، واستعداده للقتال في أي وقت تقوم حرب على دولته، حتى ولو كان على دولة مسلمة.

يتضح من ذلك أن من يطلب الجنسية من دولة كافرة ميلا إليهم، ومحبة في القرب منهم، والانضمام إليهم، والدخول في سلكهم، والرضا بسيطرتهم عليه وعلى ذريته، فإنه داخل تحت قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له

(١) مطبوع ضمن كتابه «ثلاث رسائل فقهية»، والنقل من (ص ١١٠ - ١١٤). وتنظر - أيضا -: رسالة «الجنسية والتجنس وأحكامهما في الفقه الإسلامي»؛ للدكتور سميح الحسن.

الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) [النساء: ١١٥]، إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

ولكن نظرا إلى اختلاف أحوال المتجنسين بجنسية دولة كافرة؛ فقد رأيت أن أقسمهم إلى ثلاثة أقسام، حسب ما فهمته من تتبع الأحوال، واستقراء لواقع الناس اليوم، وأنه ينبغي التفصيل في الحكم بالردة أو عدمها:

القسم الأول: إذا أخذ الجنسية من يرغب بلاد الكفار، ويحبهم، ويحب البقاء بينهم، ويرى أن معاملتهم والانتماء إليهم أفضل من المسلمين، وأنه راض بإجراء أحكامهم عليه؛ من الحكم بغير ما أنزل الله في الأحكام والنكاح والطلاق والميراث، فهذا لا شك في كفره، وهو مرتد عن دين الإسلام، ردة صريحة، حتى ولو قال: إنه مسلم، ولو شهد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وصلى وعمل ببعض شرائع الإسلام، لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، ويقول: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقوله - ﷺ -: «المرء مع من أحب»(١).

القسم الثاني: راض بالانتماء إليهم لمصالحه الدنيوية ومعاملاتهم التجارية، فأخذ الجنسية منهم ليتم مقصوده من حصول الدنيا والتسهيلات التي تحصل للمنتمين إليهم، وهو مؤد لشرائع الإسلام، مظهر لدينه، ولا يترافع إليهم باختياره، فإذا صدر منهم الحكم له بما لا يخالف الشريعة قبله.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧٠).

وإن صدر بما يخالف الشريعة رفضه. فأرى أن مثل هذا على خطر عظيم من تناول بعض الآيات، حيث آثر دنياه على آخرته، وقد ارتكب منكرا عظيما، فهو على خطر من الردة عن دين الإسلام، لركونه إليهم، وبقائه بين أظهرهم، لكن لا أجزم بالحكم عليه بالردة، فأتوقف في ذلك، ولكنه بأخذه الجنسية أظهر الميل والمحبة لهم، وعرض نفسه للدخول تحت قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

القسم الثالث: من بلي بهم في بلاده وهو كاره لهم، ومبغض لدينهم، وحكموه بغير رضاه، وأرغموه على التجنس، أو مغادرة بلاده، وأهله وأولاده، فقبلها للبقاء في بلاده على ماله وأهله وولده، ومع ذلك هو مقيم لشرائع الدين، مظهر لدينه، معلن العداء لهم، مصارح لهم بكفرهم، وأنهم على باطل، وأن دينه هو الحق، فمثل هذا لاشك أنه على خطر في بقائه، عاص وآثم بقبوله الجنسية، بمقدار ما ألزم نفسه فيها، لكن لا نحكم عليه بالكفر ما دام أنه عمل ما في وسعه من عدم إتباعهم وموافقتهم على باطلهم ومن إظهار دينه، ولكن بقاؤه بين أظهر الكفار فيه خطر عليه، وعلى أولاده ومن تحت يديه.

أما البقاء بين أظهر الكفار بدون أخذ للجنسية أو طلب لها فهذا قد فصله العلماء رحمهم الله في كتبهم قديما وحديثا.

وخلاصته: أن من استطاع أن يظهر دينه؛ بأن يعمل الواجبات الشرعية بدون تحفظ من أحد، مع إعلانه لمن هو بين أظهرهم أن دين الإسلام هو

الدين الصحيح، وهو دين الحق، وما سواه من الأديان فهو باطل، ولابد من التصريح لهم بأن ما هم عليه من الدين ليس بصحيح، وأنه يجب عليهم اعتناق دين الإسلام، والإيمان بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والعمل بشرائع الإسلام، فإذا فعل هذا؛ فإنه يجوز في حقه البقاء عندهم، وإذا لم يستطع فإنه يجب عليه الهجرة إلى بلاد الإسلام، ولا يجوز له البقاء بينهم، وهو لا يستطيع إظهار دينه».

المسألة الخامسة: التشبه وضابطه:

فقد ألف فيها العلماء والباحثون مؤلفات عديدة قديما وحديثا[1]، وأنقل هنا كلاما للشيخ ابن باز ﷺ يلخص حكمها. فقد سئل: ما حالات التشبه باليهود والنصارى؟

فأجاب: «تتنوع، فتارة يكون التشبه بهم في العقيدة، وتارة يكون فيما دون

---

(١) من أشهرها في القديم: «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم»؛ لشيخ الإسلام ابن تيمية، و«تشبه الخسيس بأهل الخميس في رد التشبه بالمشركين»؛ للذهبي، و«حسن التنبه لما ورد في التشبه»؛ للغزي. أما حديثا؛ فمن المؤلفات: «الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين»؛ للشيخ حمود التويجري، و«تحذير المسلمين من التشبه بالمغضوب عليهم والضالين»؛ للشيخ عبدالله بن سعدي العبدلي، و«من تشبه بقوم فهو منهم»؛ للشيخ ناصر العقل، و«السنن والآثار في النهي عن التشبه بالكفار»؛ لسهيل حسن عبدالغفار، و«التدابير الواقية من التشبه بالكفار»؛ لعثمان احمد دوكلي، و«التشبه المنهي عنه في الفقه الإسلامي»؛ للدكتور جميل بن حبيب اللويحق، و«مظاهر التشبه بالكفار في العصر الحديث وأثرها على المسلمين» لعبدالحميد بارقعان، و«نواقض الإيمان القولية والعملية»؛ للدكتور عبدالعزيز آل عبداللطيف (ص ٣٧٠ - ٣٧٦).

ذلك، فقد يتشبه بهم في العقيدة – نعوذ بالله –؛ في تكذيب الرسل، كتكذيب عيسى أو محمد عليهما الصلاة والسلام، فمن فعل ذلك صار مثلهم في الكفر بالله، وقد يتشبه بهم فيما دون العقيدة؛ كارتكاب المعاصي، فمن عصى الله وهو يعلم، فقد تشبه باليهود؛ لأنهم عصوا الله على علم فاستحقوا الغضب، فكل من عصى الله على علم فله شبه بهم في استحقاقه خصلة من غضب الله.

واليهود ليس لهم خاصية بهذا، فالمقصود أي تشبه بكل أنواع الكفار، فمن تشبه بما اختص به النصارى في دينهم، وصار معروفا من دينهم، أو في أزيائهم الخاصة، فقد أصبح يقتدي بهم، نسأل الله العافية، وفي ذلك وعيد شديد، قال عليه الصلاة والسلام: «من تشبه بقوم فهو منهم» أخرجه أبو داود[1]، فهو وعيد شديد يجب الحذر منه».

وسئل: ما الحد الفاصل للتشبه بالكفار في اللباس وغير ذلك، وخصوصا أن بعض البلاد التي تسمى بالإسلام لها لباس – وبكل أسف – بينه وبين لباس اليهود والنصارى وغيرهم شبه؟

فأجاب: «إذا انتشر الشيء بين المسلمين وغيرهم فلا يكون فيه شبه بالكفار، وإنما التشبه في شيء من أصل دينهم أو يغلب عليهم دون غيرهم، أما إذا انتشر بين المسلمين؛ مثل: الكنادر، وركوب السيارات، وركوب الطائرات، فهو مشترك، ليس فيه تشبه.

---

(١) أخرجه أبوداود (٤٠٣١)، وصححه الألباني.

وهذا بخلاف الشيء الذي يكون في زيهم أو عاداتهم في بلادهم أو فيما بينهم، فينبغي أن يتحرز منه، مثل: النار للنصارى، ومثل عادة النصارى واليهود في مذياعهم وفي أغانيهم التي يمتازون بها أو غلبت عليهم، فلا يتشبه المسلم بها، وأما ما انتشر بين العالم وصار للعالم كله فهو مشترك، فلا يكون هذا خاصا بالكفار، وليس فيه تشبه بأعداء الله».

وسئل: هل لبس البنطال من التشبه بهم؟

فأجاب: «كثر البنطال الآن بين المسلمين والكفار وانتشر، لكن تركه أولى؛ لأن فعله يغلب على الكفرة، فأن يترك ويتحاشى أحوط، وإن كان قد انتشر بين المسلمين ولبسه المسلمون وغيرهم، ورأوا فيه خفة لهم في أعمالهم، وفي غير ذلك، ورأوا أنه أسهل عليهم من اللبس المعتاد؛ فهذا - فيما يظهر - يخف فيه التشبه؛ لأنه الآن صار من زي أهل الإسلام، ورأوا فيه مصلحة، وقد يقال في هذا: إنه لا يكون تشبها بمحرم، ولكن ينبغي أن يتورع عنه»(١).

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «مقياس التشبه أن يفعل المتشبه ما يختص به المتشبه به، فالتشبه بالكفار أن يفعل المسلم شيئا من خصائصهم، أما ما انتشر بين المسلمين وصار لا يتميز به الكفار، فإنه لا يكون تشبها؛ فلا يكون حراما من أجل أنه تشبه، إلا أن يكون محرما من جهة أخرى»(٢).

---

(١) «الفوائد العلمية من الدروس البازية»؛ (٤ / ١٦ - ١٨).

(٢) «مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين»؛ (٣ / ١٠٧).

المسألة السادسة: حكم الخروج على الحكام ومفاسده:

أما الحكم؛ فلخصه الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - بقوله: «الخروج على السلطة لا يجوز إلا بشروط بينها النبي ﷺ كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله قال: إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان»:

الشرط الأول: «أن تروا»؛ بمعنى أن تعلموا علما يقينيا بأن السلطة ارتكبت كفرا.

الشرط الثاني: أن يكون الذي ارتكبه السلطة «كفرا»، فأما الفسق فلا يجوز الخروج عليهم بسببه مهما عظم.

الشرط الثالث: «بواحا»؛ أي معلنا صريحا لا يحتمل التأويل.

الشرط الرابع: «عندكم فيه من الله برهان»؛ أي مبني على برهان قاطع من دلالة الكتاب والسنة أو إجماع الأمة، فهذه أربعة شروط.

والشرط الخامس: يؤخذ من الأصول العامة من الدين الإسلامي؛ وهو قدرة هؤلاء المعارضين على إسقاط السلطة؛ لأنه إذا لم يكن لديهم قدرة انقلب الأمر عليهم لا لهم، فصار الضرر أكبر بكثير من الضرر المترتب على السكوت على هذه الولاية حتى تقوى الجبهة الأخرى المطالبة لدين الإسلام»[١].

---

(١) «فقه السياسة الشرعية»؛ (ص٢٧٦-٢٧٩).

فمنهج أهل السنة في هذا الباب معتمد على النصوص النبوية الصحيحة الصريحة التي تأمر بالصبر على جور الحاكم المسلم الظالم، مع عدم ترك النصيحة له، ونشر الخير بين المسلمين إلى أن يستريح بر أو يستراح من فاجر، أو يجعل الله بعد عسر يسرا، أما الحاكم الذي صدر منه كفر بواح عندهم فيه من الله برهان، فالواجب تغييره إذا تحقق شرط القدرة - كما سبق -، وهو ما استفاده العلماء من النصوص الشرعية، أو يجاملوا به الحكام، الذين جاءت النصوص بترهيبهم وإيعادهم بالخيبة والخسارة إن هم استمروا على ظلمهم وجورهم أو كفرهم.

وليس معنى هذا كما يفهم السذج وأصحاب الأهواء أنهم يرضون عن ظلم الحاكم أو يؤيدونه أو لا يناصحونه، بل هم أصحاب المواقف المشرفة في بذل النصيحة، والتحذير من التجاوزات، ومن شذ عن هذا فإنما هو يمثل نفسه، وقد جاءت النصوص بالتحذير من فعله.

ومن عاب على أهل السنة طريقتهم الشرعية في التعامل مع الحكام؛ فإنما يعيب - شعر أو لم يشعر - على نبينا محمد ﷺ الذي شرع هذه الطريقة، فهل يستطيع الجهر بهذا؟!

والعجيب الغريب أن كثيرا ممن يعيب على أهل السنة طريقتهم - سواء من أهل البدع أو العصريين أو من تأثر بهم - تجده (واقعا) يلتزم بها، ولا يدعو إلى خروج أو ثورة خشية من المفسدة (قد تكون المفسدة أحيانا دنياه ومصالحه!)، ولكنه عند التنظير ينقلب إلى أسد هصور على أهل السنة. فتأمل. واللوم يعظم عندما يقع في هذا من يعلم أن أهل السنة متبعون لا مبتدعون.

وما أجمل ما قاله الدكتور عبدالله الدميجي في رسالته «الإمامة العظمى»[١] بعدما عرض لطريقة أهل السنة: «يلاحظ تشديد السلف رضوان الله عليهم في النهي عن الخروج على أئمة الجور بالسيف، والأمر بالصبر عليهم، وذلك لما يلي:

أ - عملا بالأحاديث الواردة في ذلك.

ب- حرصا على تجنب الفتن وتعريض الأمة لها، وإراقة الدماء في غير محلها.

ج - ومحافظة على هذا المنصب الجليل في الأمة، التي متى ضعف استهانت بهم أعداؤهم، ومتى قوي خافتهم وهابتهم.

ولا ينبغي أن يفهم من ذلك أنه الإجلال لأولئك العصاة واحترامهم، ولا الخوف منهم، ولا الطمع فيما في أيديهم، وكسب رضاهم. يدل على ذلك سيرتهم معهم، وما يلقونه بسببهم من المحن، وهي مشهورة منشورة، ومدونة في بطون الكتب».

وأما مفاسد الخروج على الحكام؛ فقد كان العلماء سابقا يقصرونه على سفك دماء المسلمين، وإشاعة الفوضى في المجتمع المسلم بتقويض أمنه واستقراره، وقد انضمت إلى هذه المفسدة العظيمة في العصر الحديث مفسدة أخرى للخروج على حكام المسلمين لا تقل عن سابقتها خطورة، وهي أن هذا الخروج أصبح سببا لاحتلال بعض بلاد المسلمين من قبل أعدائهم

---

(١) (ص ٥٤٨).

المتربصين بهم، الذين يذكون نار الفتنة بين الحاكم والمحكوم؛ حتى يضعفوا البلاد المسلمة، فيسهل عليهم - حينها - الاستيلاء عليها.

١ سود

وعن المفسدة الأولى، أذكر كلاما قيما لشيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ، قال فيه: «ففي الجملة أهل السنة يجتهدون في طاعة الله ورسوله بحسب الإمكان كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ وقال النبي ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»(١)، ويعلمون أن الله تعالى بعث محمدا ﷺ بصلاح العباد في المعاش والمعاد وأنه أمر بالصلاح ونهى عن الفساد، فإذا كان الفعل فيه صلاح وفساد رجحوا الراجح منهما، فإذا كان صلاحه أكثر من فساده رجحوا فعله، وإن كان فساده أكثر من صلاحه رجحوا تركه.

فإن الله تعالى بعث رسوله ﷺ بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تولى خليفة من الخلفاء كيزيد وعبد الملك والمنصور وغيرهم؛ فإما أن يقال يجب منعه من الولاية وقتاله حتى يولى غيره كما يفعله من يرى السيف؛ فهذا رأى فاسد؛ فإن مفسدة هذا أعظم من مصلحته، وقل من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير؛ كالذين خرجوا على يزيد بالمدينة وكابن الأشعث الذي خرج على عبد الملك بالعراق وكابن المهلب الذي خرج على ابنه بخراسان وكأبي مسلم صاحب الدعوة الذي خرج عليهم بخراسان أيضا وكالذين خرجوا على المنصور بالمدينة والبصرة وأمثال هؤلاء، وغاية هؤلاء إما أن يغلبوا وإما أن يغلبوا ثم يزول ملكهم، فلا يكون لهم عاقبة، فإن عبد الله بن علي وأبا مسلم

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

هما اللذان قتلا خلقا كثيرا وكلاهما قتله أبو جعفر المنصور، وأما أهل الحرة وابن الأشعث وابن المهلب وغيرهم فهزموا وهزم أصحابهم فلا أقاموا دينا ولا أبقوا دنيا، والله تعالى لا يأمر بأمر لا يحصل به صلاح الدين ولا صلاح الدنيا وإن كان فاعل ذلك من أولياء الله المتقين ومن أهل الجنة، فليسوا أفضل من علي وعائشة وطلحة والزبير وغيرهم، ومع هذا لم يحمدوا ما فعلوه من القتال، وهم أعظم قدرا عند الله وأحسن نية من غيرهم، وكذلك أهل الحرة كان فيهم من أهل العلم والدين خلق، وكذلك أصحاب ابن الأشعث كان فيهم خلق من أهل العلم والدين، والله يغفر لهم كلهم.

وقد قيل للشعبي في فتنة ابن الأشعث: أين كنت يا عامر؟ قال: كنت حيث يقول الشاعر:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطير

أصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء.

وكان الحسن البصري يقول: إن الحجاج عذاب الله فلا تدفعوا عذاب الله بأيديكم، ولكن عليكم بالاستكانة والتضرع، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، وكان طلق بن حبيب يقول: اتقوا الفتنة بالتقوى، فقيل له: أجمل لنا التقوى، فقال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله، رواه أحمد وابن أبي الدنيا.

وكان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج والقتال في الفتنة؛ كما كان عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعلي بن الحسين وغيرهم ينهون عام

الحرة عن الخروج على يزيد، وكما كان الحسن البصري ومجاهد وغيرهما ينهون عن الخروج في فتنة ابن الأشعث، ولهذا استقر أمر أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم، وإن كان قد قاتل في الفتنة خلق كثير من أهل العلم والدين.

ومن تأمل الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ في هذا الباب واعتبر أيضا اعتبار أولي الأبصار علم أن الذي جاءت به النصوص النبوية خير الأمور، ولهذا لما أراد الحسين رضي الله عنه أن يخرج إلى أهل العراق لما كاتبوه كتبا كثيرة أشار عليه أفاضل أهل العلم والدين كابن عمر وابن عباس وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن لا يخرج، وغلب على ظنهم أنه يقتل، حتى إن بعضهم قال أستودعك الله من قتيل،وقال بعضهم لولا الشفاعة لأمسكتك ومنعتك من الخروج، وهم في ذلك قاصدون نصيحته، طالبون لمصلحته ومصلحة المسلمين. والله ورسوله إنما يأمر بالصلاح لا بالفساد لكن الرأي يصيب تارة ويخطئ أخرى.

فتبين أن الأمر على ما قاله أولئك، ولم يكن في الخروج لا مصلحة دين ولا مصلحة دنيا، بل تمكن أولئك الظلمة الطغاة من سبط رسول الله ﷺ حتى قتلوه مظلوما شهيدا، وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يكن حصل لو قعد في بلده، فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء بل زاد الشر بخروجه وقتله ونقص الخير بذلك، وصار ذلك سببا

لشر عظيم، وكان قتل الحسين مما أوجب الفتن كما كان قتل عثمان مما أوجب الفتن.

وهذا كله مما يبين أن ما أمر به النبي ﷺ من الصبر على جور الأئمة وترك قتالهم والخروج عليهم هو أصلح الأمور للعباد في المعاش والمعاد، وأن من خالف ذلك متعمدا أو مخطئا لم يحصل بفعله صلاح بل فساد، ولهذا أثنى النبي ﷺ على الحسن بقوله: «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» (١) ولم يثن على أحد لا بقتال في فتنة ولا بخروج على الأئمة ولا نزع يد من طاعة ولا مفارقة للجماعة.

وأحاديث النبي ﷺ الثابتة في الصحيح كلها تدل على هذا؛ كما في صحيح البخاري من حديث الحسن البصري: سمعت أبا بكرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين». فقد أخبر النبي ﷺ بأنه سيد وحقق ما أشار إليه من أن الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، وهذا يبين أن الإصلاح بين الطائفتين كان محبوبا ممدوحا يحبه الله ورسوله، وأن ما فعله الحسن من ذلك كان من أعظم فضائله ومناقبه التي أثنى بها عليه النبي ﷺ، ولو كان القتال واجبا أو مستحبا لم يثن النبي ﷺ على أحد بترك واجب أو مستحب.

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب هذه الفتن تكون مشتركة فيرد على القلوب من الواردات ما يمنع القلوب عن معرفة الحق وقصده، ولهذا تكون بمنزلة الجاهلية، والجاهلية ليس فيها معرفة الحق ولا قصده والإسلام جاء بالعلم

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٤).

النافع والعمل الصالح بمعرفة الحق وقصده، فيتفق أن بعض الولاة يظلم باستئثار فلا تصبر النفوس على ظلمة ولا يمكنها دفع ظلمة إلا بما هو أعظم فسادا منه، ولكن لأجل محبة الإنسان لأخذ حقه ودفع الظلم عنه لا ينظر في الفساد العام الذي يتولد عن فعله.

ولهذا قال النبي ﷺ: إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض؛ ففي الصحيح من حديث أنس بن مالك وأسيد بن حضير رضي الله عنهما أن رجلا من الأنصار قال: يا رسول الله ألا تستعملني كما استعملت فلانا؟ قال: «ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»(١)، وفي رواية للبخاري(٢) عن يحيى بن سعيد الأنصاري سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، فقال: «أما لا فاصبروا حتى تلقوني على الحوض، فإنه ستصيبكم أثرة بعدي»، وكذلك ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة في يسره وعسره ومنشطه ومكرهه وأثرة عليه»(٣)، وفي الصحيح عن النبي ﷺ عن عبادة قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله وأن نقول أو نقوم بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم(٤).

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٧)، ومسلم (١٠٦١).
(٢) أخرجه البخاري (٣٧٩٤).
(٣) أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).
(٤) أخرجه البخاري (٧٢٠٠).

فقد أمر النبي ﷺ المسلمين بأن يصبروا على الاستئثار عليهم وأن يطيعوا ولاة أمورهم وإن استأثروا عليهم وأن لا ينازعوهم الأمر، وكثير ممن خرج على ولاة الأمور أو أكثرهم إنما خرج لينازعهم مع استئثارهم عليه ولم يصبروا على الاستئثار،ثم إنه يكون لولي الأمر ذنوب أخرى فيبقى بغضه لاستئثاره يعظم تلك السيئات ويبقى المقاتل له ظانا أنه يقاتله لئلا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، ومن أعظم ما حركه عليه طلب غرضه إما ولاية وإما مال؛ كما قال تعالى ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء يمنعه من ابن السبيل يقول الله له يوم القيامة اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا إن أعطاه منها رضي وإن منعه سخط، ورجل حلف على سلعة بعد العصر كاذبا لقد أعطى بها أكثر مما أعطي»(١)، فإذا اتفق من هذه الجهة شبهة وشهوة، ومن هذه الجهة شهوة وشبهة قامت الفتنة، والشارع أمر كل إنسان بما هو المصلحة له وللمسلمين؛ فأمر الولاة بالعدل والنصح لرعيتهم حتى قال: «ما من راع يسترعيه الله رعية يموت يوم وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة»(٢)، وأمر الرعية بالطاعة والنصح، كما ثبت في الحديث الصحيح: «الدين النصيحة -ثلاثًا- »، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٢).
(٢) أخرجه مسلم (١٤٢).

وعامتهم»(١)، وأمر بالصبر على استئثارهم ونهى عن مقاتلتهم ومنازعتهم الأمر مع ظلمهم؛ لأن الفساد الناشئ من القتال في الفتنة أعظم من فساد ظلم ولاة الأمر، فلا يزال أخف الفسادين بأعظمهما، ومن تدبر الكتاب والسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ واعتبر ذلك بما يجده في نفسه وفي الآفاق علم تحقيق قول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾، فإن الله تعالى يري عباده آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أن القران حق، فخبره صدق وأمره عدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾».

وأما المفسدة الثانية؛ وهي أن الخروج على الحكام أصبح وسيلة من وسائل العدو الكافر لاحتلال ديار المسلمين، أو إخضاعها لسيطرته، فلها شواهد لعديدة في العصر الحديث، من أشهرها قيام بريطانيا الكافرة بدعم ثورة أحمد عرابي ضد ملك مصر في وقته «الخديوي توفيق»؛ حتى ألجئوا الخديوي للاستعانة بهم ضد تمرد عرابي؛ فكانت تلك ذريعة لاحتلالهم البلاد المصرية عشرات السنين!(٢)

أسأل الله أن يقي المسلمين شر الفتن، ويحفظهم من نزغات الشيطان، وكيد أوليائه.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥).

(٢) وللزيادة تنظر رسالتي «كيف احتل الإنجليز مصر؟»، منشورة بموقع «صيد الفوائد»، على شبكة الانترنت.

ترجمة المؤلف(١)

هو الشيخ علوي بن أحمد بن عبدالرحمن السقاف، الشافعي المكي، نقيب السادة العلويين بمكة، وأحمد علمائها. ولد بمكة عام ١٢٥٥هـ، وولي النقابة بها عام ١٢٩٨هـ، وهاجر إلى لحج سنة ١٣١١هـ بدعوة من أميرها (الفضل بن علي)(٢) بعد خلاف مع شريف مكة - كما سيأتي -؛ فأقام بها إلى عام ١٣٢٧هـ، ثم عاد إلى مكة، فاستمر بها إلى أن توفي عام ١٣٣٥هـ.

قال الشيخ عبدالستار الدهلوي عنه: «تربى في حجر مفتي مكة للسادة الشافعية السيد محمد الحبشي، وحين شب جد واجتهد بطلب العلم بها، فقرأ على المشايخ: محمد المذكور، وعمر بن عبدالله الجفري المدني، وأحمد دحلان، ولازمه ملازمة تامة، وأكثر قراءته عليه، فإنه قرأ عليه عدة فنون، وظهر تفوقه على أقرانه في المنطوق والمفهوم، وأذنوا له بالتدريس،

---

(١) نقلًا عن: «الأعلام»؛ للزركلي (٤/٢٤٩) - بتصرف يسير-، وله ترجمة في: «فيض الملك المتعالي..»؛ للشيخ عبدالستار الدهلوي (٢/١٠٥٦- ١٠٥٧)، و«هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن»؛ للعبدلي (ص ٢٢٠- ٢٢٣). و«المختصر من نشر النور والزهر»؛ (ص ٣٤٣- ٣٤٥)، و«أعلام المكيين»؛ لعبدالله المعلمي (١/٥١١ - ٥١٢)، و«هدية العارفين» (١/٦٦٧)، و«معجم المؤلفين» (٦/ ٢٩٥)، و«معجم المطبوعات» (ص ١٠٣٢)، و«شمس الظهيرة» (١/٢٤٣)، و«نظم الدرر»؛ (ص ١٨٩- ١٩٠)، و«سير وتراجم»؛ لعمر عبدالجبار، (ص ١٣٧- ١٣٨).

(٢) العبدلي، سلطان لحج، توفي عام (١٣١٥هـ). له ترجمة في «الأعلام» (٥ / ١٥١)، و«هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن».

وأجازوه بسائر مروياتهم مما تلقوه عن مشايخهم، فتصدر له، ودرس وأفاد وأجاد، وألف التآليف، وكان واسع المحفوظات، حسن التقرير، مدققا، حافظا للمذهب، حريصا على جمع الكتب النفيسة، واقتنى منها أشياء، وكان على جانب عظيم من العلم، جمع الله له بين العلم والفهم، وله نظم رائق ونثر فائق، وولي منصب شيخ السادة في سنة ١٣٢٧هـ، ولم يزل على دوام الاشتغال بالإفادة والتأليف حتى صار مريضا مقعدا ببيته لا يستطيع الخروج، ولكن مع هذا لا يخلو مجلسه من الإفادة، فلقد زرته كثيرا واستجزته فأجازني»(١).

وقال صاحب كتاب «هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن»(٢):

«وفي أواخر سنة ١٣١١هـ قدم إلى لحج السيد العلامة علوي بن أحمد بن عبدالرحمن السقاف، شيخ السادة بمكة المكرمة، عندما اضطر أن يترك مكة هو وجماعة من العلماء تجنبا لأذى الشريف عون(٣)، فدعاه السلطان فضل

---

(١) «فيض الملك المتعالي..»؛ (ص ١٠٥٧) - بتصرف يسير -.

(٢) (ص ٢٢٠ - ٢٢٢).

(٣) ابن محمد بن عبدالمعين بن عون، المتوفى (١٣٢٣هـ). أطال في ترجمته وذكر مصادرها: الأستاذ عاتق البلادي في كتابه» الإشراف على تاريخ الأشراف»؛ (ص ٥٨٨ - ٦٠٥). وقال الشيخ أحمد السباعي في «تاريخ مكة»، (ص ٦٢١ - ٦٢٢) - مبينا سبب نفيه للشيخ السقاف ومن معه -: «وفي سنة (١٣١١هـ) صدر أمر الشريف عون بإبعاد الشيخ عبدالرحمن سراج، مفتي الأحناف، والشيخ محمد عابدين حسين، مفتي المالكية، والسيد إبراهيم نائب الحرم، والسيد علوي سقاف شيخ السادة بمكة، والسيد عبدالله بن محمد الزواوي. ويذكر بعض من عاصر الشريف عون أن المنفيين كانوا قد كتبوا إلى الخليفة عبدالحميد يشكون من أعمال الشريف عون في مكة في مضابط موقعه =

بن علي أن يسكن حوطة لحجة لخدمة العلم فيها، فلبى شيخ السادة دعوة

= بأسمائهم، فأعادها إليه الخليفة، أو المسؤولون في القصر ممن يميل إلى سياسة الشريف عون ليطلع عليها؛ فانتقم لنفسه من أصحابها، وعاقب بعضهم السجن، والبعض الآخر بالنفي».

قلت: ولابد - عند ذكر الشريف عون - من التنبيه إلى أمر هام؛ وهو أن معظم من ترجموا له شنعوا عليه، وألصقوا به عددا من المظالم؛ مما أشار إليه الأستاذ البلادي في كتابه السابق بقوله: «ثم جاء بعده - أي أحمد دحلان - مؤرخون، لم يتركوا تهمة إلا ألصقوها بعون الرفيق، ونحن إذ أوردنا كثيرا منها، لأنها المصادر المتاحة لتأريخه، لنكاد نشك في أن بعضها له دوافع - الله أعلم بها-، ولكن ليس لنا أن نبرئ هذا الملك الضيغم. . «- ثم قال عن إبراهيم رفعت صاحب كتاب «مرآة الحرمين» -: «ثم يورد معايب كثيرة، إما أنها تحتاج إلى توثيق، أو أنها مما يعمله الملوك ورؤساء الدول إلى يومنا الحاضر». «ولذا فإني أكاد أجزم، على ما لدي من تجارب تأريخية، أن كل مصادر تأريخ عون الرفيق مرجعها، بل مصدرها الوحيد، هو ما كتبه رفعت، فصارت مظالم عون وفظائعه قضية مسلمة، فإن صدق إبراهيم - وأنا أشك في ذلك - فله صدقه، وإن كذب بهذا المين والفجور، فأين يذهب من الله يوم يقوم الأشهاد؟!». ثم نقل عن أحد المؤرخين قوله عن هدم عون للقباب: «كان ذلك منه بإغراء أحد النجديين القاطنين بمكة للاتجار من أهالي شقراء على ما أعلم، وكان على جانب من العلم وسلامة العقيدة، ويدعى أحمد بن عيسى، كان يجالس الشريف عون ويسمر لديه في كثير من الليالي، فأغراه على ما ذكرت من هدم القباب، وعلى ما كان يتخذه المكيون من توشيح أولادهم بالحجب، وبعض الصفائح من الفضة».

قلت: قال إبراهيم رفعت في رسالته «مرآة الحرمين»، (٢ / ٢٧٥ - ٢٨٠). : «ليس أدل على سيرة عون الرفيق وفداحة ظلمه وتفاقم شره وتماديه في غيه من كلمات ثلاث:

إحداهما: رسالة عنوانها «ضجيج الكون في فظائع عون» كتبها في ٢٩ذي الحجة سنة ١٣١٦هـ، السيد محمد الباقر بن عبدالرحيم العلوي، يعدد فيها مثالبه ويستصرخ إلى خليفة المسلمين السلطان عبدالحميد من ظلم هذا الأمير وبغيه.

وثانيها: رسالة أخرى عنوانها «خبيئة الكون فيما لحق ابن مهني من عون» خطها قلم الشريف محمد بن مهنى العبدلي وكيل الإمارة بجدة وأمير عربانها، وفيها يذكر ما لقيه من حيف عون وعصابة السوء التي كانت تعينه على ظلمه، وترى فيها كيف أن السلطان عبدالحميد كان جاثما في قصره حوله حاشية فساد لا تعرف لها معبودا سوى المال، وأنها كانت تحول بين الشكايات العادلة والسلطان. =

السلطان فضل، وجاء بعائلته من مكة، وتولى أمر التدريس بلحج، وأقبل

= وثالثها: قصيدة جادت بها قريحة أمير الشعراء أحمد بك شوقي نشرت بجريدة اللواء في العدد ١٣٨٣ الصادر في يوم الخميس ٢٨ المحرم سنة ١٣٢٢هـ (١٤ أبريل سنة ١٩٠٤م)، ولا ننسى مائة وخمسين ألف جنيه يأخذها عون كل سنة ظلما وعدوانا من حجاج البيت الحرام».

وجاء في الرسالة الأولى من مظالمه:

منها: أكله معظم الجرايات والمعاشات المقررة من الدولة للبوادي والأهالي؛ حتى اضطروا إلى العصيان وقطع السبل، وبذلك أصبح الحجاز من أخوف بلاد الله.

ومنها: تسليطه ندماءه وموظفيه السفلة على أعراض الرعايا وأموالهم؛ حتى صاروا يعبثون عبث الذئاب في الغنم.

ومنها: إفساده كثيرا من موظفي الدولة في مكة والأستانة، واستخدامهم في أغراضه الخسيسة بالرشوة، حتى إن أحمد راتب باشا والي الحجاز الآن بعد فقره المشهور صار له رأس مال عظيم فتح به محلا عظيما للتجارة بمصر تحت ظل الاحتلال الإنكليزي، ولنا على ذلك أدلة نوافي بها عند الاقتضاء.

ومنها: تداخله في جميع دوائر الأحكام حتى لا يصير نقض ولا إبرام إلا طبق غرضه وبثمن ينقد إلى يده، وتركه الشرع الشريف والقانون وراء ظهره.

ومنها: بيع المناصب باتحاده مع الوالي لمن يغالي بالثمن غير ملتفت إلى لياقة أو عدمها.

ومنها: اغتصابه مهور الأعيان ووضعها على ما شاء من مزوراته تغريرا للدولة وغشا لها.

ومنها: إهانة من عظم الله شأنه من علماء الحرمين وفضلائها إذا لم يوافقوه على ترهاته؛ كحبسه الشريف أحمد بن عبيد الله أمير الوادي سنينا عديدة حتى مات بالسجن مكبلا بالحديد لأمر ما.

ومنها: تشريده بالتهديد والوعيد عيون أعيان مكة المكرمة وفاضلي فضلائها؛ مثل العلامة شيخ السادة العلويين السابق بمكة السيد علوي بن أحمد السقاف العلوي، والسيد الفاضل العلامة السيد عبدالله بن محمد صالح الزواوي، وشيخ السادة السيد زين بن حسين الجفري العلوي، والعلامة مفتي الأحناف شيخ الإسلام بمكة الشيخ عبدالرحمن سراج، ومفتي المالكية الشيخ عابد، ونائب الحرم الشريف السيد إبراهيم ابن السيد علي نائب الحرم، وترسيمه على الشيخ عبدالرحمن الشيبي بالهدا حتى مات محبوسا...

لكن الغرابة والعجب العجاب، والأمر الذي حار في تأويله أولو الألباب، هو سكوت =

الناس على طلب العلم، فكان يحضر في حلقة التدريس من التلاميذ المنورين نحو مائة وخمسين طالب علم، غير المبتدئين، وتخرج منهم جملة قضاة، ونال بعضهم درجة الإفتاء، وفتح الله به على خلق كثير، وهنأه المغلس بقدوم عام ١٣١١هـ فقال:

يا أيها العلوي الأبي الفذ الأجل　　الأريحي المرتجى إن خطب جل

والماجد الشهم الهزبر المتسل　　بشراك بدر السعد في علياك حل

= الدولة العلية عن مثل هذه الأمور الجارية بمرأى ومسمع من موظفيها، وهي في ذلك بين أمرين - كلاهما قبيح وشنيع -؛ فإنها إما غافلة عن ذلك، وتلك مصيبة عظمة، أو راضية بما هنالك، فالأمر أدهى وأمر، والمصيبة أعظم وأضر».

قلت: ومع هذا؛ فإن المتأمل لترجمة الشريف عون، وما أورده الأستاذ البلادي يكاد يجزم بأن سيرته قد طالها شيء من المبالغة في التشنيع والتشويه المتعمد؛ لاسيما من قبل أناس قد تربوا على بدع التصوف، ساءهم قيامه بهدم القباب المحدثة - كما سبق -؛ تأثرا منه ﷺ بنصائح الشيخ السلفي أحمد بن عيسى ﷺ. قال الشيخ عبدالله البسام عند ترجمته للشيخ أحمد بن عيسى: «لم يقتصر نشاط المترجم على دعوة الأفراد، حتى اتصل بأمير مكة الشريف عون الرفيق، وكلمه بخصوص هدم القباب والمباني التي على القبور والمزارات، وشرح له أن هذا مخالف للإسلام، وأنه غلو وتعظيم للأموات يسبب فتنة الأحياء وبث الاعتقادات الفاسدة فيهم، فما كان من الشريف عون إلا أن أمر بهدم القباب التي على القبور، عدا قبة القبر المنسوب إلى خديجة ﷺ، والقبر المنسوب إلى حواء في جدة، فأبقاهما خشية من الفتنة، وصار المترجم بسبب علمه وعقله ونصحه مقربا من الشريف عون، يجله ويقدره ويعرف له فضله وحقه». «علماء نجد خلال ثمانية قرون»؛ (١ / ٤٤٠).

قلت: وقد بين أمين الريحاني في كتابه «ملوك العرب» (ص ٥٩) أن القناصل الأجنبية في جدة هم الذين احتجوا على محاولة هدم قبة قبر حواء! متعللين بأن «حواء أم الناس أجمعين»! وهذا من مكرهم؛ لأنهم يفرحون ببقاء المظاهر البدعية والشركية في بلاد المسلمين؛ لأنها توهن قواهم، وتصرفهم عن دينهم الصحيح. وانظر نماذج لدعمهم للتصوف وأهله في كتاب «التصوف بين التمكين والمواجهة»؛ للأستاذ محمد المقدي.

والأنس قد وافاك يا كل المنا والخير والفضل المؤيد والغنا
والعز والإقبال أيضا والهنا لقدوم عام بالتهاني قد حصل
أو ما ترى يا ذا المفاخر والسخا قد جاء بالنعماء حقا والرخا

وقال فيه السيد العالم الفاضل سالم بن أحمد بن علي المحضار صاحب حبان، وقد زاره في لحج سنة ١٣١٣هـ:

يا ظاعنا عن مكة هل من لقا بعد البعاد عن المحصب والنقا
وخرجت منها خائفا مترقبا مثل النبي الهاشمي المنتقى
لك في رسول الله أحمد أسوة بمناله نصرا على أهل الشقا
وكذلك موسى حين فارق مدينا وكذا شعيبا حبذاك الملتقا
وكذا ابن عيسى أحمد[1] من قد مضى وكفا شعيبا حبذاك الملتقا
فكفى بهم لك في الترحل قدوة هذا السبيل ولم يكن متعوقا
يا سيدا حاز المفاخر والعلا ورقى على معراج مجد المرتقى
حتى غدا شيخا إماما جامعا كل الفنون محققا ومدققا
وسما على أقرانه بزمانه في كل علم مشكلا أو مطلقا

(١) يعني: أحمد بن عيسى بن محمد الحسين، المعروف بالمهاجر، جد العلويين الحضارم، ولد ونشأ بالبصرة، وهاجر إلى المدينة المنورة عام ٣١٧هـ؛ فاتصل به بعض الحضارم وزينوا له سكنى بلادهم لمقاومة المد الإباضي، فنزل حضرموت وسكن الحسينية قرب تريم، إلى أن توفى عام ٣٤٥هـ، ينظر للمزيد عنه وعن مذهبه: «تاريخ حضرموت»؛ لصالح الحامد (١ / ٣٢٣-٣٢٥)، و«نسيم حاجر»؛ لعبدالرحمن بن عبيدالله السقاف.

وعبادة وزهادة وسماحة ... قد زاده الرب المهيمن رونقا
وشجاعة وبلاغة وفصاحة ... ما أن يغالبه صار مسابقا
ومقاوم أهل الرياسة والعنا ... ولسابق الخيرات فصيحا منطقا
ولأهله في زيهم وصفاتهم ... أضحى بهم في كل فضل لاحقا
وبخير خلق العالمين شفيعنا ... علوي بن أحمد قد غدا متخلقا
بتبسم وبشاشة ولطافة ... وبرأفة بالمسلمين ومتقا
والفضل والإحسان فيه سجية ... وإلى ذرا العليا بهمته رقا
فضلا من الرب الكريم ومنة ... وبنوره نور الهدى قد أشرقا
حتى أتى لحج الفياح فارتضى ... فيه التوطن صادقا ومصدقا
واختار في الأرض البسيطة حوطة ... في حيث أرباب المكارم والتقى
وسلامنا خصوا به حسن الرضى ... من بالمحاسن والشمائل طوقا
وسقي بكأس القرب من رب العلا ... كأسا هنيئا بالغداقة مغدقا
واختار ما اختاره علوينا ... من قبله قد أسس وتحققا
هذا امتداحي لا أريد عطية ... إلا الدعاء بفك رهن مغلقا
بدعائكم وسؤالكم متطفلا ... ولقربكم ووصالكم متشوقا
والله يحرسكم وينصركم على ... كل العدا ويكون فيهم متشوقا
ومشتتا شملا لهم ومفرقا ... جمعا لهم ومبددا وممزقا
ويذلهم ويهينهم ويعزكم ... لازال غصن العز فيكم مورقا
ويديم سلطان الزمان ببلغة ... مع طول عمر والسلامة والبقا
ثم الصلاة على النبي وآله ... ما لاح برق في الدجى أو أبرقا

مؤلفاته[1]:

١- «ترشيح المستفيدين»، حاشية في فقه الشافعية.

٢- «فتح العلام بأحكام السلام»[2].

٣- «القول الجامع المتين في بعض المهم من حقوق إخواننا المسلمين».

٤- «الفوائد المكية»، رسالة في الفقه.

٥- «القول الجامع النجيح في أحكام صلاة التسابيح».

٦- منظومة في «الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم».

٧- «نظم في معرفة الوقت والقبلة».

٨- «مجموعة»، فيها سبع رسائل.

٩- «مصطفى العلوم»، منظومة لخص بها ثلاثين علما.

١٠- «أنساب أهل البيت».

١١- «مطلب الراغب فيما يحتاج إليه الطالب».

١٢- ورسائل في النحو والفلك والحساب والميقات، وغير ذلك.

---

(١) «الأعلام»؛ (٤/ ٢٤٩).

(٢) طبع بتحقيق الشيخ محمد خير رمضان يوسف.

صورة الورقة الأولى من الرسالة

ضع صورة بيضاوي عادي وهكذا الصفحات بعدها

صغر الخط قليلاً

صورة الورقة الثانية من الرسالة

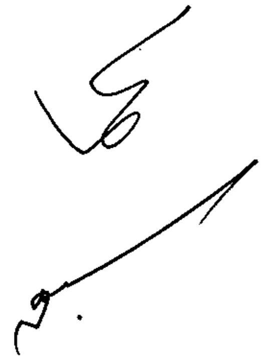

صورة الورقة الثالثة من الرسالة

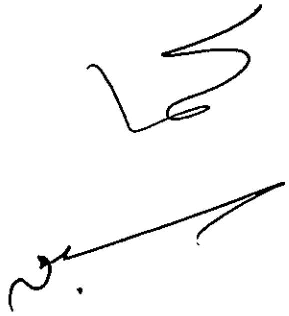

صورة الورقة الرابعة من الرسالة

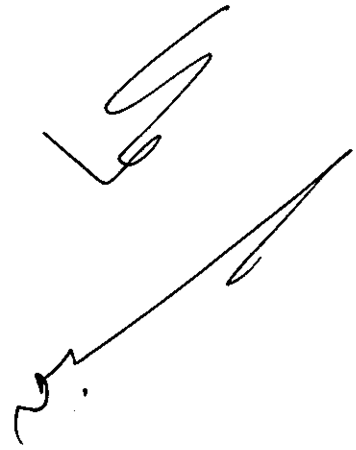

صورة الورقة الخامسة من الرسالة

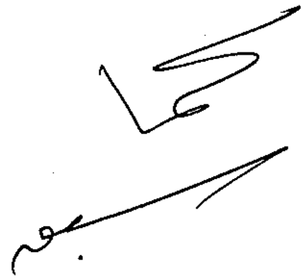

صورة الورقة الأخيرة من الرسالة

تحذير

من ينتمي إلى الإسلام، عن الاحتماء بأعداء الملك العلام، والوقوع فيمن أقامه الله تعالى للمسلمين إمام

تأليف

الشيخ علوي بن أحمد بن عبدالرحمن السقاف

المتوفى عام (١٣٣٥هـ)

رحمه الله

اعتنى بها

سليمان بن صالح الخراشي

الحمد لله الذي أنقذنا بهذا الرسول الكريم من الجهالة والضلال، وأوجب علينا بغض من كفر، المنزل عليه ﴿ ﴾[١]، وصلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه الذين جردوا بيض سيوف النصرة حين الشرك ظهر.

أما بعد:

فإن الرزية كل الرزية، والداهية الدهياء الشيطانية، ما وقع فيه بعض هذه الأمة المحمدية، من الانتماء والانتساب إلى بعض الدول الكفرية، والاحتماء بها والالتجاء إلى أبوابها، والرضا بأحكامها الطاغوتية، مع عدم شعورهم بما صاروا إليه من الخزي والنكال، وما ترتب على ذلك من الخذلان والوبال، وترديهم في مهاوي الهوى والهون والإذلال، وخلعهم خلعة الإسلام، وترديهم برداء الكفر والضلال، بنص قوله تعالى: ﴿ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ ﴾[٤]، ﴿ ﴾[٥].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة المفصحة بعدم إيمان من ذكر ممن يواد الكفار ويواليهم، فانظروا يا معاشر المسلمين في أقطار الأرض أجمعين، ما أنزله رب العالمين في كتابه المبين، في حق هؤلاء الذين أشربوا حب

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٠ .
(٢) سورة المجادلة: الآية ٢٢ .
(٣) سورة الممتحنة: الآية ١ .
(٤) سورة المائدة: الآية ٥١ .
(٥) سورة المائدة: الآية ٥٥ .

النصارى في قلوبهم، واستحضروا عظمة ملكهم وصولتهم، ولاحظوا توفر الدنيا بأيديهم، التي هي حظهم من الدنيا والآخرة، وقصروا نظرهم إلى عمارة الدنيا وجمعها، وأن النصارى أقوم لحفظها ورعايتها.

فهل بعد بيان الله تعالى بيان، أو بعد حكمه حكم ﴿ ﴾[1]، وما كان موادة سيدنا حاطب ابن أبي بلتعة الذي نزلت فيه آية الممتحنة إلا الكتاب الذي كتب به إلى أهل مكة يخبرهم بخروج رسول الله ﷺ، مع أنه لم يفعل ذلك ارتدادا ولا رضي بالكفر بعد الإسلام، وهو بدري بالاتفاق، وقد نزل فيه ما سمع[2]، وعلل سبحانه الزجر عن موالاتهم بكونهم كفروا بما جاءنا من الحق، فهل يا معاشر المسلمين فوق كفر الإفرنج كفر؟ وهل بعد

(١) سورة المائدة: الآية ٥٠ .

(٢) ونص حديثه: قال علي رضي الله عنه: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود قال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها»، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟»، قال: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت امرأ ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرا ولا ارتدادا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لقد صدقكم»، قال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: «إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» أخرجه البخاري (٦٢٥٩)، ومسلم (٢٤٩٤). قلت: وقد حمل العلماء =

ضلالهم ضلال؟

وقد سئل ابن سيرين: عن رجل يبيع داره من نصراني يتخذها بيعة، فتلا: ﴿ ﴾ ﴿ ﴾[(1)(2)]، فكيف حكم من يتولاهم بجلب الميرة والبضائع والأموال التي تقويهم وتشد شوكتهم على الإسلام؟ وكيف حال من يذل لعزتهم ويتضعضع لصولتهم، ويخضع لأحكامهم، ويفتخر بحمايتهم؟ فأين التسمي بعد ذلك بعنوان الإيمان والإسلام؟ ﴿أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا﴾، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ ﴾[(3)]، فالبطانة الدخلاء والأخلاء، يصدق على اتخاذهم كتابا وبوابين وحسابين ومؤمنين، إلى غير ذلك من أصناف البطانة.

علل سبحانه النهي عن ذلك بأنهم يحبون مشقتنا، وقد ظهرت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، فلا يعزون بعد إذ أهانهم الله، ولا

= ما صدر من حاطب ﷺ على الموالاة الخاصة غير المكفرة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٢-٥٢٣): «وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنبا ينقص به إيمانه ولا يكون به كافرا، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ، وأنزل الله فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾»، وقال مثله الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن - رحمها الله - في عيون الرسائل والأجوبة على المسائل ط، (١ / ١٧٨-١٨٠).

(١) سورة المائدة: الآية ٥١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (برقم ١٢١٦٥).

(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

يقربون بعد إذ أبعدهم الله، كما قاله عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه[١].

حاصل القرآن: مقاطعة الكفار من جميع الوجوه، ومباينتهم في كافة الأحوال، فلا مواصلة بيننا وبينهم قط.

وحديث الذي قتله سيدنا عمر بن الخطاب حين قضى عليه النبي ﷺ، وطلب أن يرده إلى سيدنا عمر.. المشهور[٢].

(١) أخرجه البيهقي (٢٠١٩٦)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٢٦٣٠).

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره (١ / ٤٤٦) عن ابن عباس: «نزلت - أي آية (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) - في رجل من المنافقين يقال له بشر، كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي: ننطلق إلى محمد، وقال المنافق: بل إلى كعب بن الأشرف، وهو الذي سماه الله الطاغوت، فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ؛ فقضى رسول الله ﷺ لليهودي، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق، وقال: انطلق بنا إلى عمر ﷺ، فأتيا عمر، فقال اليهودي: اختصمت أنا وهذا إلى محمد فقضى لي عليه، فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصم إليك، فقال عمر ﷺ للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، قال لهما: رويدكما حتى أخرج إليكما، فدخل عمر البيت وأخذ السيف واشتمل عليه، ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي بين من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله. فنزلت هذه الآية (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا)». قال الشيخ سليمان بن عبدالله آل الشيخ - رحمهما الله - في «تيسير العزيز الحميد»، (١ / ١١٢٩) - بعد تخريج القصة -: «وبالجملة؛ فهذه القصة مشهورة متداولة بين السلف والخلف تداولا يغني عن الإسناد، ولها طرق كثيرة، ولا يضرها ضعف إسنادها».

وإذا تقرر لك ذلك، وانتعش في قراءة ذهنك ما هنالك، فاعلم أن الناس قسمان:

الذين آمنوا وليهم الله تعالى، أي لا غيره، فليس لهم مولى دون الله ورسوله.

والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، فلا واسطة، فمن اتخذ الطاغوت وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا، وارتكب خطبا جسيما.

فليس إلا ولي الله أو ولي الطاغوت، فلا شركة بوجه من الوجوه البتة؛ كما تقتضيه الآية.

وقال تعالى: ﴿ ﴾[1]، وقد حكم الله أن لا نتولى الكفار بوجه، فمن خالف لم يحكم، فأنى يكون له إيمان، وقد نفى الله إيمانه، وأكد النفي بأبلغ الوجوه والأقسام علما، فاستفده وتأمل في حال مما خوصم، وطلب حكم الشريعة، وقال: أنا من رعية النصارى، فوالله لقد زاغ عن طريق الهدى، وتردى في مهاوي الردى، وشابه المنافقين الذين قال الله في حقهم:

﴿ ﴾[2].

فالصاد؛ أي المعرض عن الشريعة المحمدية، استحق عنوان النفاق والتسمي به؛ لفعله ما يخالف المؤمنين المسلمين، ولو أطلنا في مقرعاته

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٥ .

(٢) سورة النساء: الآية ٦١ .

لاتسع المجال، ولكن من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وإياك من التشبه بهم في شيء، فقد أخرج أبو داود عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، والطبراني في الأوسط عن حذيفة رضي الله تعالى عنه: «من تشبه بقوم فهو منهم»[١]، فالحديث زاجر عن التشبه بالكفار في «نصب البيارق» وغيره من وجوه التشبه؛ كهيئة اللباس والمشي والحركات والسكنات.

فقد خالف النبي ﷺ اليهود، وأمر بمخالفتهم في جميع ما يفعلونه. وكذلك المجوس والنصارى في شعائرهم ولباسهم وأعيادهم وصومهم، وجميع أحوالهم، مغايرة لهم وإغاظة.

ولقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا تستضيئوا بنار المشركين**»[٢].

وإياك يا أخي من مدحهم؛ فإن مدح الكفار لكفرهم ارتداد عن الإسلام، ومدحهم مجردا عن هذا القصد كبيرة يعزر مرتكبها بما يكون زاجرا له.

وأما من يقول: إنهم أهل عدل، فإن أراد أن الأمور الكفرية التي منها أحكامهم القانونية عدل، فقد كفر، والله ﷻ ذمها وشنع عليها، وسماها عتوًا وعنادًا وطغيانا، وإفكًا وإثمًا مبينًا، وخسرانًا مبينًا، وبهتانًا، والعدل إنما هو شريعة الله التي حواها كتابه وسنة نبيه، ﴿إن الله يأمر بالعدل﴾، فلو كانت أحكام النصارى عدلا لكانت مأمورًا بها، ولزم على ذلك التناقض والتدافع

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١١٩٧٢)، والنسائي (٥٢٠٩). وضعفه الألباني.

في الرد على النصارى.

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[2]، فهؤلاء سموا ما أمرهم الله تعالى بالكفر به عدلا فقد غالوا في ضلالهم، (ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا).

وإن أراد: العدل المجازي؛ الذي هو عمارة الدنيا، بترك الظلم الذي يخرب الدنيا؛ فلا يلزم منه الكفر، لكنه يزجر عن ذلك، الزجر البليغ.

وإياك ثم إياك يا أخي أن تستنقص إمام المسلمين وخليفة رب العالمين، ويكفيك واعظا وزاجرا حديث من لا ينطق عن الهوى، حيث قال صلى عليه الكبير المتعال: «إنما السلطان ظل الله ورمحه في الأرض» أخرجه البيهقي عن أنس[3]، وحديث: «السلطان ظل الله في أرضه، فمن أكرمه أكرمه الله، ومن أهانه أهانه الله» أخرجه الطبراني والبيهقي عن أبي بكرة[4]، وحديث: «السلطان ظل الله في الأرض، يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر، وإن جار أو حاف أو ظلم؛ كان عليه الوزر،

(١) سورة المائدة: الآية ٥٠.
(٢) سورة النساء: الآية ٦٠.
(٣) وضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة»، برقم (٢٥٠٤).
(٤) وضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة»، برقم (١٦٦٢). وصححه في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، رقم (٢٢٩٧) بلفظ: «من أكرم سلطان الله تبارك وتعالى أكرمه الله يوم القيامة، ومن أهان سلطان الله تبارك وتعالى أهانه الله يوم القيامة».

وعلى الرعية الصبر» أخرجه الحكيم والبزار عن ابن عمر[١]، وحديث: «السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه الضعيف، وبه ينتصر المظلوم، ومن أكرم سلطان الله في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة» أخرجه ابن النجار عن أبي هريرة[٢]، إلى غير ذلك من الأحاديث والآثار الكثيرة في فضائل السلطان ومحبته، والنهي عن الوقيعة فيه[٣].

فمن أهان السلطان، ورفع قدر الكفر وأربابه؛ أهانه الله، ﴿ومن يهن الله فما له من مكرم﴾.

فإن ذم السلطان من حيث رعاية الإسلام، ومدح النصارى من حيث رعاية الكفر؛ كفر، وصار مرتدا والعياذ بالله تعالى.

وإن مدح النصارى من حيث الرعاية الدنيوية وضبطها، وحماية الرعية عن المظالم، وبذل الأموال في إقامة الناموس الدنيوي، فنسب السلطان إلى القصور، والنصارى إلى القيام بذلك؛ كان المادح المذكور ممن غلب عليه حب العاجلة على الآجلة، وأشرب قلبه حب الحطام، وبعد مرماه عن مراعاة سمة الإسلام، فهو بدنياه مغرور، وبحب العاجلة مفتون، (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب).

---

(١) قال عنه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة»، برقم (٦٠٤): «موضوع»، وذكر من خرجه.

(٢) وضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة»، برقم (١٦٦٣).

(٣) انظرها في «شعب الإيمان» للبيهقي (٦ / ٣-٥٨)، و«كتاب السنة»؛ لابن أبي عاصم (ص ٤٧٣-٥٠٢)، و«معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة»؛ لعبدالسلام آل عبدالكريم.

فالمغرور المذكور ما درى من جهله وغباوته وبلادته وحماقته أن حفظ الدنيا الذي حصله رعاية النصارى؛ فوت عليه أضعافا مضاعفة من دينه، بل ربما جره إلى انطماس دينه بالكلية، فإنه لمخالطته للنصارى المذكورين، استحسن معاملاتهم وقوانينهم الضلالية، فارتكب الربا، وشاهد الخمر والخنزير، وسمع ثالث ثلاثة، وتكاسل عن الصلوات، وهانت عنده المحرمات بحكم الوفاق، واستمر على ذلك حتى صار له مألوفا، ورأى المنكر معروفا، لا تنكره نفسه، ولا يمجه طبعه، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

والله لقد تفاقم هذا الخطب الجسيم في هذه الأمة الفخيمة، وتطاير شرره في كثير من المتهاونين، فلم يروه من الأمور العظيمة.

وعلى كل حال؛ فليحذر من أراد السلامة في الدنيا ويوم القيامة من التهور في حق الإسلام أو الخليفة، فإنه على كل حال مشكور يرفع الله به الدين، ويقمع به الكفرة والملحدين، وتنتظم به الأحوال، ويزول بشوكته كل إشكال، ولو كان فاجرًا ففجوره على نفسه، ولا يجوز لأحد الخروج عليه ما لم يكفر.

قال العلامة ابن رسلان[1]:

ولم يجز في غير محض الكفر   خروجنا على ولي الأمر

---

(١) في «صفوة الزبد» [redacted] وقال الرملي في شرحه لها (ص ٢٦): «أي: يحرم الخروج على ولي الأمر وقتاله بإجماع المسلمين؛ لما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه..».

وانظر أيضًا: «شرح زبد ابن رسلان» للحبيشي [redacted] الإبي، (ص ٣٢).

مع أنا نحمد الله تعالى على إنعام الله تعالى على أهل زماننا بهذا السلطان الموفق المبرور، الذي صبه الله تعالى على أهل الكفر والفجور، فأصبح قلب كل مسلم ومسلمة مبتهج من سماع مزاياه مسرور، على أكف الضراعة والابتهال، إلى الرب الكبير المتعال، أن يديم لنا خلافته، ويؤيد صولته، ويقوي شوكته، ويدفع به أهل البغي والفساد، ويصلح بدولته البلاد والعباد، إنه على ذلك قدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وفي هذا القدر كفاية، ومن يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ومن أراد أن يتوسع في المسألة؛ فعليه بجواب الإمام العلامة الأجل، السيد عبدالله الأهدل[1]، على أسئلة مهمة أوردها عليه الإمام الهمام، بركة الدنيا ونور الإسلام، واحد العصر، وفريد الدهر، صاحب الدولة والسيادة، سيدي: فضل باشا علوي[2]، بلغه الله من مهمات الدين والدنيا ما يشاء وما

---

(١) وهو كتابه «السيف البتار على من يوالي الكفار». قال في أوله (ص ١٥): «فقد وردت علينا مسائل شريفة عزيزة، من سائل أشرب قلبه حب الدين، وتمكن في مودته أي تمكين، وكانت الأسئلة واقعة عظيمة، بلي فيها بعض طوائف هذه الأمة الفخيمة بمجاورة الطوائف الكفرية، فرقت أديانهم التي هي بكل خير حرية، فحق الجواب عن هذه الأسئلة بمحض السنة والكتاب، وإمحاض النصح بالدين الحق الذي هو فصل الخطاب». والشيخ السقاف - كما سبق - قد اختصر رسالته هذه من كتاب الأهدل.

(٢) هو فضل بن علوي بن محمد بن سهل الحسيني المليباري المكي، أمير ظفار، ولد سنة ١٢٤٠ هـ في مليبار بالهند وتعلم فيها، وأصبح له شأن هناك فكان من علماء (الموبلا)، وهم سلالة التجار العرب المتحمسون لدينهم الإسلامي، وكانت منطقة حضرموت موطن آبائه وأجداده. =

. . . .

اعتبره البريطانيون من أهم المحرضين على الاضطرابات في الهند سنة ١٢٦٩ هـ/ ١٨٥٢ م، وتعتقد السلطات البريطانية في الهند أنه أيضا وراء مقتل المحقق البريطاني الذي كلف بمهمة التحقيق في تلك الاضطرابات، ولهذا السبب نفي من الهند، وحظرت عليه العودة إليها تحت طائلة الاعتقال. وأثناء نفيه الإجباري من مسقط رأسه ماليبار، أقام في وطنه الأصلي حضرموت، لكن لم يطل به المقام هناك، حيث غادرها ليستقر في مكة المكرمة، ومن ثم متنقلا في أراضي الدولة العثمانية التي اكتسب في أرجائها شهرة لصلاحه ومواقفه. وقد زار الآستانة في أيام السلطان العثماني عبد العزيز (١٢٧٧ ـ ١٢٩٣ هـ).

وفي سنة ١٢٧٠ هـ، أثناء إقامته في مكة المكرمة، صدر أمر من السلطات العثمانية يمنعه من مغادرة أراضيها، وذلك فيما يبدو نزولا عند رغبة البريطانيين، إلا أن ذلك لم يثنه عن دوره الإصلاحي وتلمس مشاكل الأقاليم الإسلامية الأخرى من خلال وفود الحجيج. وفي سنة ١٢٨٨ هـ زار عدد من أهل ظفار وأعيانها مكة المكرمة بقصد الحج، والتقوا بالسيد فضل بن علوي – في وقت كانت فيه ظفار تعاني من الاضطرابات القبلية والمشاكل الاجتماعية والتخلف في شتى نواحي الحياة – ونظرا لشهرته وكونه يرتبط بعلاقة وثيقة بمناطق جنوب الجزيرة العربية لتحدره من أصل حضرمي، فقد رأى أعيان ظفار . وفي مقدمتهم زعماء آل كثير ـ أن يعرضوا عليه حكم ظفار، فلم يتردد في قبول العرض أملا في تكوين دولة في جنوب الجزيرة العربية تكون ظفار قاعدتها. وقد اتجه في حكمه إلى تطبيق أحكام الشريعة بين الظفاريين، فأمر على سبيل المثال بتطبيق حد القتل في القاتل، وبمنع التبرج والسفور للنساء، وفرض الزكاة الشرعية كما حددها الكتاب والسنة، كما حارب السحر والشعوذة..، وساعده على ذلك كونه خطيبا مفوها وعالما بأمور الشرع؛ كما يتضح من خلال مؤلفاته العديدة.

وكان يحكم باسم العثمانيين، وهذا ما حرض البريطانيين عليه؛ لأنهم يرون خطورة امتداد النفوذ العثماني بأي شكل من الأشكال إلى أي موقع على الساحل الجنوبي، فأغروا به وبدولته سلطان عمان الذي كان يعتبر منطقة ظفار جزء من بلاده، الذي «استعان» بالإنجليز على «فضل» ودولته. فحصلت بينهما أحداث كثيرة، آلت إلى إبعاده عن ظفار بعد خمس سنوات من حكمها (من ١٢٩٢-١٢٩٧هـ)، فغادرها إلى المكلا في حضرموت، ومنها إلى جدة، ثم إلى القسطنطينية، وكان في تلك التنقلات يحاول إعادة سلطانه، إلا أنه لم يتمكن؛ بسبب تألب =

شاء، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

= سلطان عمان مع بريطانيا ضده. توفي ﷺ سنة ١٣١٨ هـ في العاصمة العثمانية: القسطنطينية.
من مؤلفاته: «إيضاح الأسرار العلوية»، و«تحفة الأخيار عن ركوب العار»، و«عدة الأمراء والحكام»، و«حلل الإحسان لتزيين الإنسان»، و«عقد الفرائد من نصوص العلماء الأماجد»، «وبوارق البداية لصاحب البداية»، وغيرها. انظر للزيادة عنه وعن إمارته: بحث «إمارة فضل بن علوي في ظفار بين الدعم العثماني والرفض العماني البريطاني»؛ للدكتور سعيد بن عمر آل عمر، مجلة «التاريخ العربي»، (العدد ١٨)، و«الأعلام» (٥ / ١٥٠)، و«الأعلام الشرقية»، (١ / ٣٤).

الغزالي كبير

اجعلها كالسابقة

فهرس المحتويات

ارفعه

المقدمة ــــــــ ٥

المسألة الأولى: الولاء والبراء ــــــــ ١٤

الثانية: مظاهرة الكفار على المسلمين والفرق بين التولي والموالاة والاستعانة ــــــــ ٤٤

المسألة الثالثة: مدح الكفار ــــــــ ٤٨

المسألة الرابعة: التجنس بجنسية دولة كافرة ــ ٥٤

المسألة الخامسة: التشبه وضابطه ــــــــ ٥٨

المسألة السادسة: حكم الخروج على الحكام ومفاسده ٦١

ترجمة المؤلف: ــــــــ ٧١

مؤلفاته: ــــــــ ٧٨

صور المخطوط ــــــــ ٧٩

بداية الرسالة ــــــــ ٨٥

فهرس المحتويات ــــــــ ٩٩

بني عبيد الذين ملكوا المغرب ومصر والشام وغيرها مع تظاهرهم بالإسلام وصلاة الجمعة والجماعة ونصب القضاة والمفتين لما أظهروا من الأقوال والأفعال ما أظهروا ولم يستشكل أحد من أهل العلم والدين قتالهم ولم يتوقف فيه وهم في زمن ابن الجوزي ، وصنف ابن الجوزي كتابا لما أخذت مصر منهم سماه النصر على مصر ولم يسمع أحد من الأولين والآخرين أن أحداً أنكر شيئاً من ذلك أو استشكله لأجل ادعائهم الملة أو لأجل قول لا إله إلا الله أو لأجل إظهار شيء من أركان الإسلام إلا ماسمعنا من هؤلاء الملاعين في هذه الأزمان من إقرارهم أن هذا هو الشرك ، ولكن من فعله أو حسنه أو كان من أهله أو ذم التوحيد أو حارب أهله لأجله أو أبغضهم لأجله أنه لا يكفر لأنه يقول لا إله إلا الله أو لأنه يؤدي أركان الإسلام الخمسة ، ويستدلون بأن النبي صلى الله عليه وسلم سماها الإسلام هذا لم يسمع قط إلا من هؤلاء الملحدين الجاهلين الظالمين ، فإن ظفروا بحرف واحد من أهل العلم أو أحد منهم يستدلون به على قولهم الفاحش الأحمق فليذكروه ، ولكن الأمر كما قال اليمني في قصيدته :

أحاديث لاتعزى إلى عالم فلا تساوي فلسا إن رجعت إلى النقد

ولنختم الكلام في هذا النوع بما ذكره البخاري في صحيحه حيث قال باب تغيير الزمان حتى تعبد الأوثان ، ثم ذكر بإسناده قوله صلى الله عليه وسلم « لاتقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة » وذو الخلصة صنم لدوس يعبدونه فقال صلى الله عليه وسلم لجرير بن عبدالله «ألا تريحني من ذي الخلصة ، فركب إليه بمن معه فأحرقه وهدمه ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، قال فبرك على خيل أحمس ورجالها خمسا » وعادة البخاري رحمه الله إذا لم يكن الحديث على شرطه ذكره في الترجمة ثم أتى بما يدل على معناه مما هو على شرطه ولفظ الترجمة وهو قوله يتغير الزمان حتى تعبد الأوثان لفظ حديث أخرجه غيره من الأئمة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ولنذكر من كلام الله ورسوله وكلام أئمة العلم جملا في جهاد القلب واللسان ومعاداة أعداء الله وموالاة أوليائه ، وأن الدين لايصح ولا يدخل الإنسان فيه إلا بذلك فنقول :

باب وجوب عداوة أعداء الله
من الكفار والمرتدين والمنافقين

وقول الله تعالى (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم) وقول الله تعالى (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) وقوله (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) إلى قوله (كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) الآية وقوله (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله) .

قال الإمام الحافظ محمد بن وضاح : أخبرنا غير واحد أن أسد بن موسى كتب إلى أسد بن الفرات : اعلم ياأخى أن ما حملنى على الكتاب إليك ماذكر أهل بلادك من صالح ماأعطاك الله من إنصافك الناس وحسن حالك مما أظهرت من السنة وعيبك لأهل البدعة وكثرة ذكرك لهم وطعنك عليهم ، فقمعهم الله بك وشد بك ظهر أهل السنة وقواك عليهم بإظهار عيبهم والطعن عليهم ، فأذلهم الله بك وصاروا ببدعتهم مستترين ، فأبشر أى أخى بثواب ذلك واعتدّ به من أفضل حسناتك من الصلاة والصيام والحج والجهاد ، وأين تقع هذه الأعمال من إقامة كتاب الله وإحياء سنة رسوله ؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أحيا شيئاً من سنتى كنت أنا وهو كهاتين فى الجنة وضم بين أصبعيه» . وقال «أيما داع دعا إلى هدى فاتبع عليه كان له مثل أجر من تبعه إلى يوم القيامة» فمتى يدرك هذا أجر شىء من عمله ، وذكر أيضاً «إن لله عند كل بدعة كيد بها أهل الإسلام وليا لله يذب عنها وينطق بعلامتها» فاغتنم يا أخى هـذا الفضل وكن من أهله فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن وأوصاه «لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من كذا وكذا» وعظم القول فيه ، فاغتنم ذلك وادع إلى السنة حتى يكون لك بذلك ألفة وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حدث فيكونون أمة بعدك فيكون لك ثواب ذلك إلى يوم القيامة كما جاء فى الأثر ، فاعمل على بصيرة ونية وحسبة فيرد الله بك المبتدع المفتون الزائغ الحائر ، فتكون خلفاً من نبيك صلى الله عليه وسلم ، فإنك لن تلقى الله بعمل شبهه . وإياك أن يكون لك من أهل البدع أخ أو جليس أو صاحب ،

فإنه جاء الأثر : «من جالس صاحب بدعة نزعت منه»

أيد الله نصرهم وعلاهم ببقاء الإمام فى إيناس
وأدام الإله نصر سعود ناصر الدين لابنى العباس

وفيها وقع الطاعون فى بغداد والبصرة وما بينهما من البلاد وتزايد أمره وتفاقم وجل الخطب وتعاظم ، وكل يوم يموت من البشر ويدفن فى تلك الحفر مئات من الأنام وطال ذلك عليهم ليالى وأيام حتى فنى أكثر أهل البصرة ومن والاها من قرى الهجرة ويذكر أنه مات فى ذلك الطاعون مائة الألوف من جميع البلدان متفرقون . وفيها أرسل عبد العزيز حرسه الله تعالى إلى زيد بن زامل رئيس الدلم بنبذ العهد والأمان وليس هنا إلا الدخول فى دائرة أهل الإسلام والإيمان ، فلم يثن إلى ذلك الشأن منه عنان ولا التفت إليه مختالا بما لديه وسعى فى حشد الناس والأحزاب لما أراد الله تعالى عليه تعجيل العذاب وأرسل إلى رئيس نجران يستجيشه ويستدعيه ويعده على مجيئه الأموال ويمنيه ويضعف أمر هذا الدين ويوهيه فلم يرعو إلى ذلك المقال وقصده زيادة الشرط فى المال والتوثق قبل الشروع فى الحال .

ثم دخلت السنة الثامنة والثمانون بعد المائة والألف . وفيها أيضاً أرسل زيد بن زامل إلى رئيس نجران يدعوه إلى ذلك الشان ، ويحثه على القدوم فى ذلك الزمان وتعجيله قبل طوارق الحدثان ، فلان إلى ذلك فؤاده لأن طلب المال هواه ومراده وغارت لنيل المال عيونه وحارت فى ذلك أوهامه وظنونه وصارت أنامل يده ينادمها عثنونه فتأمل ساعة وفكر ثم أجمع عزمه ودبر وحرر مقصوده وقدر وحقق مطلوبه وقرر فأرجع إليه الرسول يريد أن يبين له المبذول ويعرفه بالعائد والموصول وفائدة المحصول حتى يكون بعد ذلك الحصول وينجح السير والوصول وينجز لكم المرام والسول فأرجع إليه بما راض جأشه عليه وأن ذلك يتمثل لديه فوقع بينهما الشارطة وانبرام العقد والمرابطة ، وحصل التقارر بعد المعاودة والمفاوضة على قريب من ثلاثين ألف زر تعجل بها القابضة وطلب زيد بن زامل من رئيس نجران أن يرسل إليه أرهان حتى يرسل إليه الذى استقر واستبان ، فأرسل إليه الرئيس رهنا من جماعته وأعيان قومه وخاصته وعجل بهم له فى ذلك العام رغبة فى تعجيل الحطام وأداء ذلك الشرط والالتزام ، فلما قدموا على زيد أولئك الأقوام جد فى تحصيل ذلك المال واستيفائه من الرعية بالإذلال وأقاموا على ذلك ليالى وأياما لا تذوق عيونهم فى الدجى مناما ويعانون من ذلك جهدا وسقاما وضيقا وإلزاما ويرتجون لهم مآبا (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا)

فلما نضّ له ذلك المال أرسل به في الحال لقصد نجح المرام بقدوم أولئك الطغام . وفيها نزل عريعر مع بني خالد وعنزة على بريدة وأعمل فيها مكره وكيده وأقام بها بعض أيام وهو يحاول في أهلها بالخديعة والإبرام وتليين الجناح لهم في الكلام ، فجاشت إلى ذلك قلوبهم وحاطت بهم ذنوبهم فاستدعى عريعر أميرها عبد الله بن حسن للخروج إليه والمواجهة حتى يكون الخطاب مشافهة فاغتر بذلك وظهر وسار إليه وابتدر ؛ فعند ذلك حجر عليه وأسر ، فدخلت المدينة على حين غفلة من أهلها ولعل ذلك من شوم ، وكان ذلك على حين غفلة بلا تثبت ومهلة وبئس هذه الفعلة وما أقبحها من خصلة فجالت في البيوت أولئك الأعراب وكسروا لتلك الأبواب فلم يجد أهلها من ذلك مهربا ولا ألفوا للنجاة مطلبا وشمر راشد الدريبي لذلك إزاره وقصد في ساعته قصر الإمارة وكان قبل ذلك منه خاليا وذلك البلد منه خاليا وفر من يخاف من المسلمين على نفسه من المبطلين وتفرقوا في البلدان حتى جاءهم من ربهم الصلة والإحسان، فكاتب عبد العزيز أهلها الذين خرجوا منها ونفروا هاربين عنها وهم آل عليان على أنهم يقبلون عليه ويقيمون عنده أحسن الله قصده فأسرعوا إليه المجيء والإقدام وقابلهم بغاية الإكرام ورعا لهم تلك الذمام وأقاموا في نهاية الاحتشام وأقام عريعر في ذلك المكان بعض أيام وليال ، ثم شمر في المسير والارتحال فسار منها وظعن عنها ومعه عبد الله بن حسن ذلك الأمير ، ولم يزل عنده في حكم الأسير حتى جاءه قضاء العظيم الكبير وحان أن يسقى ذلك الكأس المرير وينفذ فيه الإرادة والتقدير ويتجرع كأس الحمام بعد ذلك العز التام ، فنزل به في أرض الجابية السام نفر من ذلك المقام السام وضمه ضيق اللحود وصار أكلة للدود بعد ذلك القنا والقنابل ومسايرة الجيوش والجحافل ، وهذه سنة الله في جميع المخلوقات والعبيد ومفاجأة الحمام بغتة لذوي البأس العتيد (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) . وفيها غزا سعود حرسه الله بالمسلمين يريد البلم ، والسعد قد قارنه وألم ، فسار حتى قرب إليها وشارف الهجوم عليها فأناخ على حين غفلة من الناس وقد هجع أهل الأندية والأحراس ، فعبأ عند ذلك من الكمين ما أرادوها أهل الغارة من أولئك الأجناد فلم تستقر الشمس طالعة حتى صارت خيول المسلمين إلى الغارة نازعة فوافت كثير أغنام فاستاقها على التمام وخرج بعد ذلك من أهل البلد من فيه نجدة وكان استرداد تلك الأغنام قصده ، فناوشهم المسلمون القتال والكل قد بذلوا فيه طاقة الحال حتى ظهر

(إلى شادف نزل حتى يلاحق الجموع والدول، ثم يسير بتمام أهبة على عجل، فيدرك

عند ذلك الأمن ، فلما بلغ سعدون ظهور العصابة المنصورة وأن ألوية العز عليهم خافقة منشورة ورايات الإمداد مرفوعة على رؤوسهم مشهورة ، حصل له الرعب والإرجاف فلم يكن له عند ذلك صبر ولا ائتلاف بل أخذته الذلة والارتعاش ولم يحصل لأهل البلد منه بعد ذلك انتعاش بل ولى مدبرا وانجاش . فلما ارتحل وشرع فى السير انتدب أهل الإيمان من قرى سدير مع مامعهم من الإمداد مثل حسن بن مشارى وابن غشيان وقومهما من الأنجاد، فبادروا أهل الروضة بالقتال والجلاد، فخرج إليهم أهل الشر والفساد وطال بينهم القتال فى ذلك المجال وقتل منهم عدة رجال منهم أميرهم عون بن ماضى ثم ولوا مدبرين وأقاموا بعد ذلك متحصرين ثم أقبل سعود بجيوش المسلمين فنزل على أولئك القوم المحصورين فأخذ جميع الحلل التى كانت فى النخل ومكث أهل البلد فى البلد حلتهم متحصنين فى محلتهم وفى قلعة البلد أناس من آل ماضى ورجاجيل لسعدون بن عريعر ، فطال عليهم الحصار وشرع سعود فى قطع النخل والأشجار، فلما تحققوا بهم نزول النقمة والباس من رب الناس وغلبهم القنوط والياس طلبوا من سعود الأمان واللحوق بأهل الإيمان ، فأجاب طلبتهم ولبى دعوتهم ونزلوا على حكمه وما اقتضاه منير فهمه ، فعاهدوه على الإسلام والتزموا بجميع الأحكام واعتذروا من سوء ذلك القيام وقبح ذلك المرام ، واشتروا منه جميع مافى البلد من الأموال بدراهم نقد ، وهاله فى الحال وأمر بجلاء آل ماضى ومن ساعدهم من الرجال فخرج عنها جميع أهل الشر والفساد وأمر عبد الله بن عمر على تلك البلاد وانصرف سعود راجعا .

ثم دخلت السنة السابعة والتسعون بعد المائة والألف . وفيها سار سعود بالمسلمين يريد أهل الخرج ذوى الفساد والهرج ، فلما وصل إلى قرية الحائر أخبر فى أثناء طريقه وهو سائر أن آل مرة هنالك فأمر على الدول بالرجوع وانصرف عن قصده ذلك وسار بالجيش يريد فريقا من مطير يدعون الصهبة فعمد إلى ذلك الفريق وطلبه وحث الجياد فى السير لئلا ينتذر فريق مطير وكانوا على المستجدة، فبذل فى التعجيل جهده فلم يفجؤهم إلا غارة الخيل وكانوا فى سرعة اللقاء كالسيل وشدوا للارتحال فى الاظعان والهروب عن ذلك السكان وبقيت حماة الفرسان مشمرة للذب عنهم فى الطعان حتى أعياهم الأمر وعالهم وغشيهم من مرارة الزان ماهالهم وكدر بالهم ، فرزق الله تعالى

رجالهم وشتت حالهم ، فأخذوا بذلك السكان عن قريب ولم يكن لهم فى السلامة تصيب ، وقتل منهم رجال كثيرة وشجعان شهيرة مثل خلف الفغم ودخيل الله بن جاسر ، وغنم المسلمون مامعهم من الأموال وانصرفوا فى أحسن حال . وفيها غلا الزاد جدا وبلغ فى الغلاء حدا وأخذ الناس من ذلك الجهد والبلا وكان سببا للفناء والبلا وطال ذلك على أهل نجد وسكانها ولم يروا مثله فى أزمانها وعم ذلك جميع بلدانها فسقموا من الجوع ، وليس إلا إلى الله الرجوع واستمر ذلك سنين وبقوا تلك المدة مستتين وقد حالت عليهم السنين والأحوال وشاهدوا أشد الأهوال ومات من ذلك كثير من النساء والرجال فضلا عن البهائم والأطفال فكان كثير إذا شرع فى الصلاة خرّ وسقط حتى يظن رائيه أنه من الجن قد اختبط ووسوس فى عقله واختلط ، فالتجئوا إلى مولاهم فى كشف ما أهم ودفع ما نزل بهم ودهم ، فأجاب جل وعلا دعاء ذلك الملا وهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه وينجح أمله ورجاه ، فأنزل الله تعالى فى قلب عبد العزيز الرأفة والرحمة والتحنن بضعفاء تلك الأمة ، فأمر جميع البلدان فى تلك السنين والأزمان أن أهل كل بلد ومكان يحصون ماعندهم من المساكين والضعاف ويقيتونهم من الطعام مابه قوام وكفاف ، فامتثلوا أمره وقوله وانتهجوا عمله وفعله وقام حرسه الله فى الناس حين حلول البأس أعظم قيام فأفاض من الإنعام على أولئك الأنام خصوصا أهل الحاجة والأرامل والأيتام وشمر بالإحسان منتدبا وجد فى المعروف والبر محتسبا وكان لأجره من الله مرتقبا ، ولم يزل على تلك الحالة مستمرا حتى كشف الله تعالى عن الخلق ضرا ، فنال بذلك ثوابا وأجرا وحاز مجدا وفخرا . وفيها مقتل زيد بن زامل : وذلك أنه أغار على أهل سبيع وهم إذ ذاك على الرياض فأخذ عليهم إبلا ثم انصرف من ساعته من غير ارتياض ، ففزع على أثره سليمان بن عفيصان وليس معه إلا جماعة يسيرة من أهل الإيمان جدّ السير فى طلبه وحث المطىّ فى عقبه فأدرك ابن زامل مع قومه وكانوا يزيدون على ثلاثمائة راكب بأرض يقال لها الحنية من نجد فشن عليهم الغارة فنال بذلك أعظم قصد وقتل زيد بن زامل وانهزم جميع من معه من القبائل وأخذ بعضا من ركابهم وفك الإبل وولوا على أعقابهم ، ورجع سليمان ومن معه بالنصر والأمان . وفيها أهدى عبد العزيز حرسه الله تعالى على سرور والى مكة المشرفة خيلا وركابا وكرمه بذلك وسر نفسه وقصده بذلك التشريف والإكرام وإهدائه ذلك النفيس الذى هو أجل

قبيح الفعل والبهتان ، وأرسلوها إلى الباشا سليمان وأقسموا له فيها أنه لايصلح لهذا الشأن ولايقوم بأعباء الرياسة ومصادمة الكتائب والشجعان ومنازلة الجموع والأجناد من سائر العربان ، ومقابلة هؤلاء العصاة العدوان ومقاتلة حضرهم والبدوان، وإزالة أثرهم من الحسا ، ومحاصرتهم فى البلدان سوى ثوينى من الأنام إنسان ، ولايقدر على ماذكرناه إلا هو ذو الهيبة والشان، فأطلقه ورئسه حتى ترى مايسر الأعيان ويقر الناظر له فى العيان ، وتحمد أثر سعيه فى قريب من الأزمان ، وترى أهل الدين من سطوته يهربون ومرادهم على الدين يخربون(واصبر وما صبرك إلا بالله ولاتحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون) فلما دعا الباشا ماحرروه ووعا ماأثبتوه وقرروه وتأمل مفهوم ماقد حبروه وعرف منطوق ماسطروه وحوى ما كذبوا فيه وزوّروه ، أمر بإحضار ثوينى عنده فأحضروه وخلع عليه ورأسوه وكبروه وعقدوا له الحكم على الحاضرة والبادية وأمروه ؛ ولم يقف الباشا على حقيقة مادبروه وأنهم قد بدلوا الأمر عليه وغيروه وحذروه من هذا الذى نفروه ، وما هو والله إلا كذب افتروه وأعانهم عليه قوم آخرون (إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون) فحين حظى ثوينى بالرياسة ونالها وحاز من آماله منالها نادى برفيع صوته ، أنا لهؤلاء الطائفة أنا لها ، وأعطى جماعته الأيمان على ذلك وأنالها وهم لأيمانه مصدقون (وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون) وندبوه على قتال أهل الدين والتدمير وحثوه على آلات التسيير وتعجيل الظهور والسير وحرضوه على أن لايبقى منهم صغير ولا كبير ولا يذر شريفا ولا حقير ، وكان بمسمع من اللطيف الخبير ، جميع مابه يحرضون (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) فأقبل متنعما بإزالة الدين من أساسه ، وإطفاء نوره من نبراسه وتغيير منهاجه وانتكاسه ، وقتل كافة أنصاره وأحزابه وأناسه ، واستئصال شأفة بلدانه وأعوانه وأجناسه ، واغتر بما جاء به من سواد رجسه وأرجاسه وغوغاء أجناده وأحزابه وأنجاسه ، ورام هذا المرام لقوة بأسه وما شعر أنه مسوق إلى قطع رأسه واستيفاء بقية أجله وأنفاسه ، ولم يعرف ومن معه من هم له محاربون (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) وهبط من بغداد بعد مقاساته بها الأنكاد ومعاناته هم الأسر والقياد ، والغم الذى غشى الفؤاد ، فأسرع فى الامتثال

والانقياد وإحكام آلات الحرب والأهبة والاستعداد ، وحشد الجيوش والأجناد والاستعانة بالأسباب والأمداد من كل ناحية وقطر بلاد ، وكلهم بما قدروا عليه يمدون (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) وسحب ثوب الخيلاء والتيه وجره ، وأوطأ سنابك خيل جيشه المجرة ، واختال بما داخله من العجب والأنس المسرة، التي كان في ضمنها له الهلاك والمضرة ، والذل والهوان والمعرة .

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر مايجني عليه اجتهاده

فكان والعياذ بالله كالجادع أنفه بكفه ، والباحث عن حتفه بظلفه ، وهذا شأن الذين يستدرجون (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون) وحث السير يريد الفيحا وصولا،وطوى بأيدي الجياد من المهامه صعابا وسهولا،وعزم أن يفي بعهده (إن العهد كان مسئولا) حتى يصادف من الباشا رفعة وقبولا ، ولقد تكلف بما ليس والله في طوقه(إنه كان ظلوما جهولا) وشمخ بأنفه وجر للكبر ذيولا (إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) ولكن أكثر الناس لايتدبرون (وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) ولما قارب دخول البصرة في الاقبال وتبين له منها رسوم وأطلال ، خرج إليه أهلها من الفرح باستعجال وتلقوه بالقبول من أميال وبادروه بالحشمة والإكرام والإجلال وأظهروا من التوقير والخدمة والامتثال ما لايخطر على البال ولا يحصره في البيان المقال ، فدخلها بأبهة تغشى عيون الناظرين رونقا وحسنا ، وتخجل المتأملين فيها ألبابا وذهنا ، ويبهر العقول مشاهدة ذلك المقام الأسنى فتنقص عند مطالعته مهابة وجبنا ، وتقول ياليت لنا مثله ، وكذا أهل الدنيا يقولون (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون) ولم يستقر قراره في البصرة بل ساعة دخلها أخذ يجهز أمره ويظهر تجبره وبأسه وقهره ويجد في أسباب الحرب والمكايد خفية وجهرة ويحذر الناس سطوته ومكره ويخوفهم لكي يساعدوه ويشدوا أزره .

ولقد بذلوا الجد في مساعدته وحققوا عزه وغلبته ونصره وما جال في خلدهم أنه قد حفر لنفسه من الشر حفرة وهي لمصرعه بيديه قبره ، ولقد كانت حاله لذوي العقول عبرة ولكن أكثر الناس لايعتبرون(قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون) .

وفى حدود إتيانه البصرة ووصولها وهبوطه إليها ودخولها ومكثه فيها وحلولها أتته من رؤساء ما تليه من البلدان ومن العلماء الذين هم لهذا الدين عدوان وعلى محقه من الأرض أعوان محررات الوسائل للنفوس ومحبرات الرسائل فى الطروس والصحف التى أجيد فى السجع منشورها والقصائد التى جلى بالبهتان صدورها وأفصح بالعداوة والبغى منشورها وأبان محض الحسد والاستكبار صدورها فكانت ولله الحمد شؤما عليه قدومها وظهورها لما بالغ فيه من الفحش بهتانها وزورها وتعدى فيه عصيانها وفجورها ومضمون تلك الرسائل والقصائد ومطلوبها من الأمانى والفوائد حثه على سرعة التعجيل لما هو قاصد لكى يفوز بما أملوا من ~~القاصد ولم يجر على بالهم~~ أن الله تعالى له بالمراصد (وأنه يعلم ما يسرون وما يعلنون — قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) واستغاثوا به فى منثورهم ومنظومهم وندبوه وسألوه تعجيل النصرة لهم وطلبوه ولم يخشوا الله تعالى فى ذلك ولم يرهبوه ووعدوه الأجر على ذلك ورغبوه، وتألوا فى نصره على الله فيما كتبوه وليتهم لسوء هذه الجرأة يفهمون (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) وأعنقوا فى سيرهم ذلك ، ونصوا وعموا فى حكمهم له وخصوا وجزموا له فيما زخرفوه له بالغلبة ونصوا وما اكترثوا بمن عليه يجترئون (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) وقد وصل إلينا من هاتيك الديار منظومة لابن فيروز من تلك الأشعار متضمنة لأقبح العار تبين فساد مبناها وبطلان مفهومها ومعناها بأول وهلة قبل التأمل والاختبار ، كيف وقد صرح فيها ناظمها ومنشيها بالاستغاثة بملك جبار وظالم تعدى وجار ، والدعوة والاستغاثة حق للواحد القهار كما هو فى محكم التنزيل يقرءون (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) ولقد نظمها ابن فيروز وأرسل بها إليه وقدمت البصرة عليه فقابلها بالقبول التام وأبدى من حسن القبول والإعظام ما زاد على السول والمرام وأمده بكثير من الحطام ، وكان بينهما قبل ذلك محبة وصحبة والتئام ومعاشرة ومواصلة وانتظام ، فهم على الخلة مجتمعون (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) ، وهذا نصها :

أنامل كف السعد قد أثبتت خطا ... بأقـــلام أحكام لنا حررت ضبطا